رواية

بوهوميل هرابال

قطارات تحت الحراسة المشددة

ترجمة: بسام حجار

مكتبة 403

الفارابي
المتوسط

من الكتاب:

سارت العربة بمحاذاة القطار المنخور بالرصاص، والمركون على الخطّ الخامس، وكان المستشار زدنيتشيك يُمعن النَّظر في الثقوب التي أحدثَها رصاص الرشّاشات في العربات التي نزعتْ سقوفها. صعد رئيس المحطّة إلى الطابق الأوّل، حيث راح يزعق ويقلب الكراسي، ويجعل فتات الكلس يتساقط في غرفة المكتب، كان يصيح باتّجاه فناء التهوية:

- لم يعد ثمّة أخلاق! كل شيء بات فاسداً! كما في مدينة «سدوم» القديمة! يلوذ البغاءُ بالمقاهي والطاعم والمكاتب بمباركة الشرطة. أحد الأزواج يُرغم زوجته على ممارسة البغاء، ويُهدِّدها بأن يشطر ابنها بالمنشار إلى نصفَيْن لو رفضت الذهاب إلى سباق الخيل! الكل في انغماساته! الكل يلمع القربة! فالأحرى أن ينفخ اللهُ في صور القيامة، وتحلّ النهاية!

قطارات

تحت الحراسة المشددة

مكتبة 403

مكتبة ٢٠١٩٤١

حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٧ منشورات المتوسط - إيطاليا، ودار الفارابي - بيروت.

Ostre sledované vlaky *by* "Bohumil Hrabal"
Arabic translation copyright © 2017 by **Almutawassit Books** & Alfarabi

المؤلف: بوهوميل هرابال / المترجم: بسّام حجّار
عنوان الكتاب: قطارات تحت الحراسة المشددة
الطبعة الأولى: ١٩٩٠ دار الفارابي / الطبعة الثانية: ٢٠١٧
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-614-432-800-2

الفارابي

دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01) ص.ب: 3181/11 - الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com / info@dar-alfarabi.com

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

بوهوميل هرابال

قطارات تحت الحراسة المشددة

ترجمة: بسام حجار

مكتبة 403

الفارابي

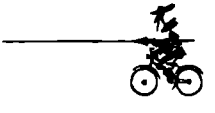

المتوسط

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

تقديم
هرابال، براغ والوحدة والذاكرة

وُلد بوهوميل هرابال في برنو عام ١٩١٤. وبعد طفولة قضاها في "نيمبورغ"، وهي بلدة صغيرة في مقاطعة بوهيميا، حيث كان والده يدير حانة محلّية صغيرة، غادر إلى براغ عام ١٩٣٩ للالتحاق بكُلّيّة الحقوق. ولم يحصل على شهادته (دكتوراه في القانون) إلا عام ١٩٤٦ بسبب إغلاق الجامعات التشيكية من قِبَل السلطات الألمانية المحتلَّة، ولكنه لم يمارس مهنة المحاماة. ورغبة منه في الانغماس في الأوساط الاجتماعية الأكثر تنوُّعاً، أوجد لنفسه "مصيراً اصطناعياً"، فعمل على التوالي كمساعد لكاتب عَدْل، وبائع في مخزن، وعامل في السّكّة الحديد، ثمّ بعد نيله شهادة الدكتوراه في القانون، كموظّف في شركة تأمين وبائع متجوّل وعامل في مصانع الصلب في كلادفو، وكومبارس في عدد من المسرحيات.

وكان هرابال، طوال فترة تنقُّله من مهنة إلى أخرى، يثابر على الكتابة دون أن يكون لديه أدنى أمل في أن يرى نصوصه مطبوعة في يوم من الأيّام. إلا أن بدايات انفتاح الستار الحديدي جعلت هذا الأمر ممكناً. وصدرت له في عام ١٩٦٣ أولى كتاباته، بعنوان: "لؤلؤة في القعر"، وقد لاقى كتابه الأوّل هذا استقبالاً حسناً لدى القرّاء، ورأى فيه النقد آنذاك كاتباً من "براغ، في الخطّ الذي رسمه

"ياروسلاف هازيك" و"فرانتز كافكا". وقد لاقت كُتُبه التالية كلها استقبالاً مشابهاً من الترحيب والحماس النقديَّيْن، وعلى الأخصّ روايته: "قطارات تحت الحراسة المشدّدة"، والتي اقتبسها "جيري منتزل"، أحد مخرجي الموجة الجديدة في تشيكوسلوفاكيا، للسينما، ونال الفيلم الذي حقّقه جائزة أوسكار.

يقول هرابال في إحدى المقابلات التي أجرتْها معه "المجلّة الأدبية" (الفرنسية)، عدد حزيران ١٩٨٨، "كنتُ في السابعة عشرة حين بدأتُ بالكتابة، وأحسب أن أوّل ما تأثّرتُ به يعود إلى "جوزيبه أونغاريتي" والسرياليين، وكان تزارا (تريستان) قد جاء في زيارة إلى "براغ"، في ذلك الحين. ولكنني كنتُ أيضاً قارئاً نهماً للكاتب التشيكي لاديسلاف كليما (١٨٧٨-١٩٢٨)، وخاصّة روايته: "عذابات الأمير شترننهوخ". وبرغم بداياته المبكرة، فإن بوهوميل هرابال لم يمتهن الكتابة ويكرّس "حياته" للأدب إلا في سنّ متأخّرة نسبيّاً، ولذلك، ربمّا، ظلّت أعماله، في الجانب الغالب منها، أقرب إلى السيرة الذاتية. ويوضح هرابال هذا الميل قائلاً: "لطالما كان الشاغل الأساس في حياتي هو التذكار. ويبدو لي أنه الشرط الضروري، والذي لا غنى عنه لمتابعة الكتابة. وبهذا المعنى، ترى السيرة الذاتية هي المادة الأولى في رواياتي، ولكنها مشغولة بالحكاية المتخيّلة، بالأسطرة. ذلك أن طريقتي في الكتابة تجمع دائماً بين التحقيق الصحفي والتحويل الأسطوري (الخرافي) للواقع.

إنّ أعمال هرابال تشبه إلى حدّ بعيد لعبة التّخفّي الحقيقية، وما يجعلنا نصدّق هذا الانطباع عودته باستمرار إلى نصّه المكتوب لاستبدال أو تغيير بعض ما فيه، حتّى إنه يسمح، أحياناً، بتداول صيغ

مختلفة للنصّ الواحد، بحيث يجعل من مهمّة الناقل عن الأصل التشيكي مهمّة شاقّة بالفعل. قد يكون هرابال مثال الكاتب الذي لا يُقيم على حال أو هيئة، فهو لا يرغب في أن يصبح رهين عالم كُتُبه. ففيها تقوم الذاكرة بحشد شخصيات وأماكن، تجمع فيما بينها، ولكنْ، دائماً عبر المسافة التي تفرضها السخرية: "السخرية بالغة الأهمّيّة بالنسبة لي. وهي، بأيّة حال، جانب من السلوك الماثل في أعمال الكتّاب التشيكيين كلهم الذين أحبّهم: ياكوب دمل، لاديسلاف كليما، أو ياروسلاف هازيك. ولقد تأثّرتُ كثيراً بالسخرية المدمّرة لهذا الأخير. أحسب أن السخرية هي، على نحو ما، حال المواجهة القصوى بين ذات ما ووضع اجتماعي ما".

وحين يُسأل هرابال عن ردّة فعْله إزاء الرقابة على نشر بعض كُتُبه في بلاده (قبل التغييرات الحالية التي تشهدها أوروبا الوسطى)، يقول: "لم يكن شاغلي يوماً أن أنشر ما أكتبه، بل على العكس أن أكتب ما ينبغي أن يكون مُعلَناً. المهمّ، قبل أيّ اعتبار آخر، هو أن يقرأ أعمالي الأصدقاء في الوسط الذي يحيط بي. وفي بلدي، أصدقائي يقرؤون كُتُبي كلها. فالكتابة دائماً هي نوع من الشغل المنفرد، إنها دائماً العبارة عن الوحدة، العبارة عن وحدة "صاخبة".

كذلك الأمر، فإن هرابال بنى أعماله انطلاقاً من أمزجة خاصّة في القراءة. يقول: "القراءات التي كانت حاسمة في مساري الأدبي هي قراءة ريلكه، وسيلين، وت. س. إيليوت، والسرياليين. بدأتْ في الثلاثينيات، ولا تزال مستمرّة حتّى اليوم. وإذا كان يتوجّب عليّ أن أختار "معلّماً"، في الأدب الفرنسي، فسأختار "ألبير كامو". لقد كنتُ شديد التأثّر بطريقته في معالجة نصّه السَّرْدي. وأشعر بأنني أقرب

إلى هذه الطريقة. فأنا لا أبالي كثيراً بقضايا "الشكل" الأدبي، وما يعني دائماً هو "المضمون". ولهذا السبب، ربمّا لم أهتمّ كثيراً بموجة "الرواية الجديدة". فقد تعلّمتُ، في الحقيقة، وفي وقت مبكر، بأن الكتابة هي تماماً كما يراها لاديسلاف كليما مجرّد "لعب"". ويُضيف هرابال بأن الكتابة الأولى للنصّ هي فعلاً "تجسيد حُرّيّة الكاتب" ولكنْ، فيما يعنيه، "جلجلة فلوبير"، هي الكتابة الثانية أو الثالثة أو... ولكن ما يشفع لها، أي الكتابة، هي أنها لحظة تعويض واستدراك ضرورية: "كتابتي هي نوع من سيرورة العلاج النفسي الذاتي. ومعها ينتظم عالم التّأمّل الذي أشعر أحياناً أنه أقرب "للاعتراف الكاثوليكي". فالكتابة هي طريقة في معالجة ذاتي، وفي تجنُّب الذهاب إلى المستشفى. طريقة في "خلاص" ذاتي".

بوهوميل هرابال الذي يُعدّ اليوم، إلى جانب ميلان كونديرا، أحد كتّاب تشيكوسلوفاكيا الأحياء الأكثر شهرة، والذي تُرجمت أعماله إلى عدد كبير من لغات العالم، لم تُنقَل أعماله إلى الفرنسية أو الإنكليزية إلا في أواخر الستينيات. كما لم تُنقل أيّ من رواياته، على حدّ علْمنا، إلى العربية. ومن بين عشرين مؤلّفاً صدرت له في بلاده، أو تناقلها قرّاؤه سرّاً، نذكر تلك التي نُقلت وصدرت في العواصم الأوروبية: "قطارات تحت الحراسة المشدّدة"، "أنا الذي خدمتُ ملك إنكلترا"، "وحدة بمثل هذا الصاخب"، "البلدة الصغيرة حيث توقّف الزمن"، "الشعر الأضحية"، "قسوة ملمومة"، و"للبيع بداعي السفر"، "الهمجي الرقيق".

المترجم

قطارات

تحت الحراسة المشددة

في تلك السنة، سنة ألف وتسع مائة وخمس وأربعين، كان الألمان فقدوا السيطرة على الأجواء في سماء مدينتنا الصغيرة. كما كانت سيطرتهم أقلّ في سماء المنطقة، والبلاد كلها. والقاذفات المغيرة أربكت مواعيد سير القطارات، حتّى إنَّ قطارات الصباح كانت تمرّ عند الظهر، وقطارات الظهر عند المساء، وقطارات المساء، في ساعاتٍ متأخّرة من الليل، وإذا صادف أن وصل قطار بعد الظهر في موعده، نكتشف أنه قطار بطيء، تأخّر موعد وصوله أربع ساعات كاملة.

أمس الأوّل، أسقطت مُطارِدةٌ عدوَّةٌ مطارِدَةً ألمانيةً في سماء مدينتنا الصغيرة، وأفقدتْها أحد جناحَيْها. اشتعلتْ حجرة الطّيّار، وهوتْ في الحقول المجاورة، ولكن الجناح، بانفصاله عن هيكل الطائرة، أفْلتَ جفناتٍ من البراغي والمسامير التي سقطتْ في الساحة، وخدشتْ، في سقوطها، عدداً من رؤوس النساء. ولكن الجناح كان يحوم في سماء مدينتنا الصغيرة، وكان كل مَنْ يستطيع التحديق يُراقبه، حتّى بدأ يهوي بحركة ناشزة فوق الساحة تماماً، حيث هُرع زبائن الحانَتَيْن. فيما ظلّ الجناح ينسحب على أرض الساحة والناس يعبرونها مهرولين، ثمّ يعودون أدراجهم، ويعبرونها

في الاتّجاه المعاكس مهرولين أيضاً، بسبب الجناح الذي يتأرجح جيئة وذهاباً مثل رقّاص ضخم، ويدفع الأهلين إلى الجهة المقابلة لنقطة سقوطه المحتمل، وهو يُحدث هديراً مُتعاظم القوّة، وصوتاً شجياً. ثمّ تعاظمت سرعة هبوط الجناح، وهوى في حديقة السّيّد العميد. ولم تمض خمس دقائق حتّى كان أهل المدينة يتنازعون القطع وألواح الفولاذ التي ظهرتْ، منذ صبيحة اليوم التالي، على سطوح حجرات الأرانب وخممة الدجاج، ولم يحلّ بعد الظهر حتّى قطع أحد السّكّان هذا الصفيح المسروق، وصنع منه، في المساء، ألواحاً رائعة للوقاية من الوحل، وثبّتَها على جوانب درّاجته النارية. وهكذا اختفى الجناح، كما اختفتْ ألواح الفولاذ كلّها وقطع هيكل طائرة "الرايخ" كلها التي سقطتْ في الحقول المغطّاة بالثلوج خلف مدينتنا الصغيرة. وكنتُ في طريقي على درّاجتي إلى هناك، بعد نصف ساعة من سقوط الطائرة، لأرى. وصادفتُ قبل أن أصل أناساً يجرُّون الغنائم في عربات. وكان يصعب عليّ أن أخمّن ما الفائدة من هذه الأشياء، ولكني تابعتُ طريقي، على درّاجتي، إذ كنتُ أريد أن أرى تلك الطائرة المحطّمة، فأنا لا أطيق الكواسر الخطّافة، وطبعاً لستُ من طينة أولئك الذين يُهرعون لجَمْع أو تفكيك قِطَع الآليات، والخردة! ولكن أبي كان يسير قُدُماً على الدرب المغطّى بالثلج المَدوس، والذي يؤدّي إلى الحطام المحترق، كان يحمل آلة موسيقية فضّيّة، لا أعرف ما هي، وكان يبتسم وهو يرفع تلك الأنابيب الفضّيّة وكأنها نوع من الأنابيق الحلزونية، أجل كانت عبارة عن أنابيب وجدها في الطائرة، الأنابيب الموصلة للمحروقات، وعند المساء، فور وصوله إلى البيت، لم ألبث أن أدركتُ سبب بهجة أبي بتلك الغنيمة. إذ قطعها إلى أجزاء متساوية، ولمّعها، ثمّ وضع، إلى جانب الأنابيب

السّتّين اللامعة، قلمه ذا الرصاصة المتحرّكة، والذي له براءة اختراعه. كان أبي يجيد كل شيء، لأنه أُحيل على التقاعد منذ أن كان في الثامنة والأربعين من العمر. وسبب تقاعده المبكر أنه كان ميكانيكياً، فبدأ حياته المهنية بالعمل على متن قاطرة، وهو لم يتجاوز العشرين، وهكذا كانت سنوات الخدمة تُحتَسب مضاعفة لسنّ التقاعد، ولكن سكّان البلدة ما كانوا يطيقون فكرة أن أبي سيمكث بينهم عشرين أو ثلاثين سنة أخرى في هذه الحياة الدنيا. ثمّ إن أبي كان يسبق في نهوضه باكراً أولئك الذين يذهبون إلى أعمالهم. وكان يلتقط كل ما يعثر عليه في أنحاء المنطقة كلها، براغي وحدوات أحصنة، وكان يعثر في المكبّات العمومية على كل أنواع الحراتيق والأدوات والقطع التي لا تنفع لشيء، ويحتفظ بها كلها في منزلنا، في الأقبية والعنابر. وكنا نحسب، في بيتنا، أننا نقيم عند أحد جامعي الخردة. إذا حدث وأراد أحد سكّان البلدة أن يتخلّص من أثاثه القديم، فإن أبي دائماً على أهبة الاستعداد لأخذ كل شيء. كنّا ثلاثة فقط في البيت، ولكننا كنّا نملك نحو خمسين كرسياً، وسبع طاولات، وتسع كنبات، إضافة إلى كمّيّات كبيرة من الرفوف والجرار والمغاسل. ولكن أبي لم يكن مكتفياً بعد، فكان يتجوّل على درّاجته في أنحاء المنطقة، ويتجاوزها إلى أبعد أحياناً، وينقب في المكبّات العمومية، بواسطة خطاف حديدي، ويعود في المساء محمّلاً بالغنائم، لأن كل شيء ينفع ذات يوم، وكان محقّاً بالفعل، فإذا أراد أحدهم أن يحصل على قطعة غيار، لم تعد المصانع تُنتج مثلها، قطعة غيار لسيّارة أو لمطحنة أو لدرَّاسة، ولم يستطع أن يجدها، تراه يطرق بابنا، فيفكّر أبي لهنيهة، ثمّ يتوجّه، دون تردّد، إلى القبو أو العنبر أو إلى الفناء الخارجي، حيث أكوام الخردة، ويقلبها بخطافه الحديدي، ويلتقط من بينها، في لمحة، قطعة تفي

بالغرض. لذلك كان أبي زعيم حملات يوم الأحد الأسبوعية لجَمْع الأدوات المعدنية القديمة، وكان لا يفوته أبداً في طريقه إلى المحطّة، حيث توضع الغنائم، أن يمرّ ببيتنا، وأن يحتفظ لنفسه ببعض خردة يوم الأحد هذه. ومع ذلك، ما كان أهل البلدة ليغفروا له أبداً. ولا شكّ في أن السبب والد جَدّي، لوكاس، الذي حظي بإيراد، يبلغ "فوراناً" واحداً في اليوم منذ سنّ الثامنة عشرة، ثمّ نال، فيما بعد، نفقة بالكورون في عهد الجمهورية. وُلد والد جَدّي لأبي عام ١٨٣٠. وعام ١٨٤٨ كان أصبح طبّالاً في الجيش، وتبعاً لذلك، شارك في القتال على جسر "شارل"، حيث كان الطلاب يرشقون الجنود بطوب الأرصفة والطُّرُقات، فأصابوه في ركبته، وسبّبوا له عطلاً دائماً، وعُدَّ مُقعداً. ومنذ ذلك اليوم، نال جعالة، قيمتها فوران واحد في اليوم. وكان يشتري بمال هذه الجعالة، كل يوم، قنّينة روم وعلبتَي تبغ، ولكنه بدل أن يمكث في بيته هانئاً يدخّن ويمرّ شرابه، كان يطوف برِجْله العرجاء في الشوارع والطُّرُقات، ويُفضّل لنزقه أن يتوجّه إلى أماكن العمل، حيث يعمل الآخرون بكَدّ، فيناكف العمّال، ويحتسي شرابه، ويدخّن تبغه تحت أنظارهم الحاسدة، فكان والد جَدّي لوكاس يتعرّض للضرب المبرح مرّة في السنة، على الأقلّ. حتّى إن جَدّي كان يُضطرّ أحياناً لنقله، وهو في أسوأ حال، على عربة جَرّ إلى المنزل. ولكنه ما إن يستعيد عافيته، كان يعود إلى طوافه في الطُّرُقات، يسأل الناس عمّا إذا كانوا لا يودّون مبادلته بوَضْعه، وهكذا حتّى يتعرّض من جديد للضرب المبرح الذي لا يليق بمسيحي مثله. ثمّ جاء سقوط الإمبراطورية النمساوية المجرية، فحُرم والد جَدّي من جعلته التي كان يقبضها منذ سبعين عاماً. ومع النفقة التي كانت تدفعها الجمهورية، انتهى عهد قنّينة الروم وعلب التبغ. ولكن والد جَدّي كان يتعرّض

للضرب المبرح كل سنة، لأنه كان يواصل استحضار السنوات السبعين التي استطاع خلالها أن يشتري قنّينة الروم وعلب التبغ. وذات يوم من عام ١٩٣٥ ارتأى والد جَدّي أن يذهب ويتبختر أمام أنظار عمّال مقلع حجارة بعد أن أقفل مقلعهم، فضربوه حتّى الموت. وكان الطبيب يقول إنه كان ليحيا مدّة عشرين سنة أخرى. كانت أسرتي، إذن، محطّ كراهية البلدة بأسرها. أما جَدّي، ولئلا يكون مديناً لسمعة والد جَدّي لوكاس، فقد كان مُنوِّماً مغنطيسيّاً. وكان يعمل في جوقات السيرك التي تجوب المقاطعات الريفية. أما أهل البلدة، فكانوا يرون في عادة تنويم الناس هذه البرهان الأكيد على أنه يفعل ما في وسعه، لكي لا يفعل شيئاً. ولكنْ، في شهر آذار، عندما اجتاز الألمان الحدود عنوة لاحتلال البلاد كلها، وتقدّموا باتّجاه "براغ" كان جَدّي هو الوحيد الذي ذهب لملاقاتهم، وحده جَدّي ذهب لمواجهة الألمان، وقطع الطريق عليهم بتنويمهم، ولإيقاف الدبّابات المتقدّمة بقوّة الفكر. إذنْ، كان جَدّي يتقدّم وعيناه جاحظتان، تُحدِّقان في أولى دبّاباتهم طليعة جيوشهم المؤلّلة. وكان يقف في برج هذه الدّبّابة أحد جنود الرايخ، وقد ظهر جذعه حتّى الزنّار، كان يعتمر "بيريه" سوداء، وعليها شارة جمجمة فوق عظمَتَيْن متقاطعَتَيْن، وكان جَدّي يواصل تقدّمه مباشرة باتّجاه هذه الدّبّابة، كانت ذراعاه ممدودَتَيْن، ومن عينَيْه، يضخّ أفكاره باتّجاه الألمان، استديروا وعودوا من حيث أتيتُم ... وبالفعل، توقّفت طليعة الدّبّابات، وتوقّف الجيش برمّته في صفّ خلفها، لامس جَدّي هذه الدّبّابة برؤوس أصابعه، ولم يتوقّف عن بَثّ الفكرة نفسها ... استديروا وعودوا من حيث أتيتُم، استديروا وعودوا من حيث أتيتُم، استديروا ... ثمّ أشار الملازم ببيرق صغير، وانطلقت الدّبّابة من جديد، ولكن جَدّي لم يتحرّك من مكانه، فهرستْه الدّبّابة، وقطعتْ

له رأسه، ولم يبقَ هناك ما يقف في وجه جيوش الرايخ. وفيما بعد، ذهب أبي لإحضار رأس جَدّي. كانت طليعة الدبّابات قد توقّفت قسراً قبل وصولها إلى براغ، في انتظار وصول رافعة لسَحْب رأس جَدّي العالق بين زردات الزنجير، ولكن زردات الزنجير كانت في وَضْع، أتاح لأبي أن يحظى بالإذن، لأن يسحب بنفسه رأسَ جَدّي بُغية دَفْنه مع الجثّة، كما يليق بمسيحي. ومنذ ذلك الحين والنقاشات الواسعة لا تهدأ في أرجاء المنطقة كلها. كان البعض ينعت جَدّي بالمجنون، ولكن البعض الآخر كان يقول إنه لم يكن مجنوناً لهذه الدرجة، وإنه لو تصدّى الجميع للألمان كما فعل جَدّي، وفي يده سلاح، فَمَنْ يدري ما كان عساه يحلّ بهم.

كنّا، في تلك الحقبة، لا نزال نسكن الريف، ولم ننتقل للإقامة في المدينة إلا فيما بعد، وأنا الذي كنتُ معتاداً على الوحدة، اعتدتُ أن أخرج من المدينة لكي أتنفّس. وما إن أعود وأرى الشوارع والأزقّة الضّيّقة من الناحية الأخرى للجسر حتّى أشعر أنني، أنا نفسي، أضيق، كان ولا يزال وسيظلّ ينتابني الشعور بأن عينَيْن اثنَتَيْن على الأقلّ تراقباني خلف كل نافذة. وعند سماعي مَنْ يلفظ اسمي، كنتُ أتورّد خجلاً لمجرّد الفكرة أن الجميع كان لديهم ما يتهامسونه في شأني. فمنذ ثلاثة أشهر، جرحتُ معصمي، من دون سبب ظاهر. ولكنْ، كان لي سببي، وكنتُ أعرفه، وما كنتُ أخشى سوى أمر واحد، وهو أن يفطن له أحد، هذا السبب، لمجرّد أن يراني. ولذلك كنتُ أتخيّل العيون تراقبني خلف كل نافذة. ولكنْ، ما الذي لا يتخيّله المرء حين يكون في الثانية والعشرين؟ كان في استطاعتي أن أحسب أنه إذا كان أهل مدينتنا الصغيرة يراقبونني، فلأني جززتُ أوردة معصمي،

لكي أتهرّب من العمل. الذي كانوا يُنجزونه بدلاً منّي، كما كانوا يعملون بدلاً من والد جَدّي لوكاس وجَدّي "فيلم" الذي كان مُنوِّماً مغنطيسياً، وأبي الذي قاد القاطرة طوال ربع قرن، لسبب وحيد وهو أن يُتاح له بعد ذلك الاستغناء عن العمل.

في تلك السنة، كان الألمان قد فقدوا سيطرتهم على الأجواء في سماء مدينتنا الصغيرة. وعندما وصلتُ إلى هيكل الطائرة، كانت المساحة المغطّاة بالثلج تلمع، وفي كل بلّورة ثلج كنتُ أحسب أنني أسمع تكّة عقرب ثوانٍ ضئيل، كان الثلج يتهالك، ويستحيل إلى جميع الألوان تحت الشمس اللاهبة، وكنتُ أسمع تكّة الساعة هذه في كل بلّورة، وفي أيّ شيء آخر. كانت تكّة ساعتي مسموعة بوضوح، ولكنّي أسمع أيضاً تكّة أخرى. وتلك التّكّة تصدر عن الطائرة، عن هذا الركام. وبالفعل، كانت ساعة لوحة القيادة لا تزال تعمل، وتشير بدقّة إلى الوقت الذي تحقّقتُ من صحّته بنظرة إلى عقارب ساعتي. ثمّ رأيتُ، إلى أسفل لوحة القيادة، قفّازاً، تضيئه أشعّة الشمس، وانتابني شعور يقين بأن هذا القفاز لم يكن وحده، وأنه يحتوي على يد إنسان، وأن يد الإنسان هذه ليست وحدها، بل هي موصولة بذراع، وهذه الذراع موصولة بجسد إنسان، لا بد أن يكون موجوداً في مكان ما تحت هذا الركام المحترق. ألقيتُ بكامل ثقلي على دوّاسَتَي الدرّاجة، ومن كل صوب، كانت تترامى إلى مسامعي تكّات العقارب الضئيلة التي أفزعتْها أشعّة الشمس، وفي البعيد على الخطوط الحديدية، كان قطار بضائع يتقدَّم، ويُحدث صلصلة مبتهجة، لقد كان قطاراً بخارياً في طريق عودته إلى حوض "موست"، ومن المؤكّد أنه من ذوات المئة والأربعين مقطورة، وقد علق نعلُ المكبح في وسط القطار،

كان يقدح شَرَراً، فينقط المعدنُ السائل على الخطَّيْن، ولكن القاطرة كانت تقطر القطار بفرح، ومعه هذه المقطورة العالقة.

صباح الغد أكون في محطّتي الصغيرة، أُشرف على خطّ التسيير في اتّجاهَيْن، حيث كل القطارات التي تتّجه من الشرق إلى الغرب تحمل أرقاماً مفردة، والقطارات كلها التي تتّجه من الغرب إلى الشرق تحمل أرقاماً زوجية. سأعمل من جديد إلى تنظيم حركة القطارات لأوّل مرة منذ ثلاثة أشهر، سأكون في المحطّة التي يعبرها خطّان رئيسان، والخطّ الرئيس المخصّص للقطارات المتّجهة من الشرق إلى الغرب يحمل الرَّقْم ٢، والخطوط كلها التي تقع إلى يمين الخطّ ١ تحمل أرقاماً مفردة، ثلاثة، خمسة، سبعة، والخطوط كلها التي تقع إلى يمين الخطّ الرئيس رَقْم ٢ تحمل أرقاماً زوجية - أربعة، ستّة، ثمانية، عشرة، إلخ. لقد وُضع هذا الترقيم، طبعاً، لنا نحن، موظّفي سكك حديد الدولة، لأن الإنسان العادي من بين الواقفين على رصيف المحطّة، في محطّتي الصغيرة، مثلاً، له الخطّ الأوّل هو الخامس، والخطّ الثاني هو الثالث، والخط الثالث هو الأوّل، والخطّ الرابع هو الثاني. إذن، منذ الصباح الباكر، سأرتدي من جديد برَّتي الحكومية - البنطال الأسود والسترة الزرقاء، السترة النظامية ذات الأزرار النحاسية التي تُلمّعها والدتي "بالميرور"، ثمّ أُزرِّر الياقة الجميلة التي تحمل شارات مماثلة لشارات السترة، هذه الشارات التي تُتيح لأيّ عامل في السكّة الحديد أن يتنبّه فوراً لمرتبتي في السِّلْك. على الياقة، يشير زرّ التلميذ إلى أنني تجاوزتُ البكالوريا بنجاح. والنجمة الرائعة المطرّزة بخيطان مذهّبة تعني أنني موظّف متمرّن في سكك حديد الدولة. وفي أعلى الياقة، تلمع أجمل الإشارات، عجلة مجنّحة مزركشة بالأزرق

والبنفسجي، عجلة مجنّحة، تشبه حصان بحر من ذهب. إذنْ، غداً صباحاً سأذهب قبل بزوغ النهار، سوف تتبعني أمّي بنظراتها، واقفة بلا حراك خلف الستارة، وخلف كل النوافذ التي سأمرّ بها، سيقف أناس بلا حراك مثل أمّي، وسيحدّقون فيَّ، إصبعُهم على الستارة، وسأمشي الطريق نزولاً حتّى النهر، وحين أصل إلى الدرب خارج البلدة، سأتنفّس ملء رئَتَيّ، كالعبادة، لأني لا أحبّ ركوب القطار للوصول إلى عملي، فأنا أتنفّس بشكل أفضلْ على ضفاف النهر، حيث لا نوافذ ولا فخاخ، ولا إبر يغرزونها في رقبتكَ، من الخلف.

لم يتبدّل شيء في مكتب المحطّة منذ لحظة رحيلي. كانت مجموعة إغلاق الخطوط الرئيسة تشبه، كالعادة، أرغناً نقّالاً هائلاً، أو ماكينة نقود، وطاولة التلغراف قبالة النافذة التي تُرى من خلالها، وعلى مسافة خمسة كيلومترات، طريق ريفية، وعلى جانبَيْها أشجار تفّاح عتيقة، وفي آخرها، يتألّق قصر الأمير كينسكي، القصر الذي رأيتُه هذا الصباح، بُعيد طلوع الشمس، تغشاه ضبابة خفيفة حتّى أعلى الطابق الأوّل، كما لو كان معلّقاً في طرف سلسلة مذهّبة. وعلى هذه الطاولة، ثلاثة أجهزة تلغراف، تعود صناعتها إلى نصف قرن سابق من معامل سيمنز هالسكه، وثلاثة دفاتر قيد. كالمعتاد، كانت الاتّصالات تتشابك عبر هاتِفَي الخطوط وهواتف المحطّة الثلاثة، ومكتب المحطّة يضجّ، كالمعتاد، بالهديل الرقيق، برنين أجهزة التلغراف ووشوشة الهواتف، حتّى يُخيّل لواحدنا أنه يدخل إلى دكّان لبيع الطيور. على زجاج شبّاك التذاكر، لجهة ردهة الانتظار، كانت الستارة الصغيرة الخضراء هي نفسها وقد علقت بحلقات نحاسية، وبجوارها الخزانة المعدنية، وآلة خَتْم التذاكر. تمنّى لي السّيّد هوبيكا، المُولَج بالأمن، عودة طيّبة، ولم يلبث أن أبلغني أننا سنكون في الخدمة معاً. فبعد ثلاثة أشهر من الإجازة المَرَضية، كان عليَّ أن أخضع لاختبار تأهيل جديد. ثمّ سألني عن الساعة، وطوى

كُمَّ قميصي إلى ما فوق المعصم، إلا أنه لم ينظر إلى ساعتي، بل كانت عيناه تُحدِّقان في ندبة الجرح الملتئم.

توَّردت وجنَتَاي خجلاً، وتشاغلتُ بالبحث عن قُبّعتي الحمراء. كانت القُبّعة في الخزانة وقد غطّاها الغبار، وتركتْ عليها الفئران آثار قوائمها الضئيلة. نظّفتُ قُبّعتي النظامية بالفرشاة تحت نور شمس الصباح. وكانت حمائم رئيس المحطّة تُطلق الهديل من برجها. وخلف المحطّة كانت تبدو كل عوائق ميدان السباق، وميدان سباق "الغران بري دوباردوبيس" المصغّر بأكمله، ذلك أن الأمير كينسكي كان يربّي خيول السباق، الخيول الأصيلة التي ربح بها ما هو أفضل من جائزة باردوبيس الكبرى، أعني جائزة ليفربول الكبرى، وتبلغ قيمتها نحو مليون جنيه إسترليني، وكان هذا المبلغ هائلاً في ذلك الوقت، فشرع الأمير في بناء دار للسينما ضخمة خلف محطّتنا الصغيرة، ومبنى للمسرح، وصالة للحفلات الموسيقية، تقدمة منه للبلدة، ولكنه لم يُنهِ أبداً أعمال البناء، وحُوِّل المسرح إلى أهراء للحبوب، هو أجمل إهراءات الحبوب في العالم، إذ يصل الناس إليه عبر مدخل، تقوم على جانبَيْه أعمدة إغريقية رومانية. وكان لهذا الإهراء اسم إنكليزي: فقد كان يُسمّى "ليفربول".

عند السابعة والنصف تماماً دخل رئيس المحطّة إلى مكتب المحطّة. كان يزن نحو كنتال(*) ولكنه، على ما ترويه النساء، يرقص برشاقة لا تُوصَف. كان يُسرِّح شعره برَدِّه شعر الجهة اليسرى على الجهة اليمنى، ليغطّي صلعته، وانطلاقاً من أذنه، فوق صلعته أيضاً، برَدِّه شعر الجهة اليمنى على الجهة المقابلة. وما إن يصعد إلى

(*) أي ٢٥٠ كلغ.

رصيف المحطّة، كانت أقلّ النسيمات ترجُّ القوس القوطية لذؤابته الهزيلة، وتطيرها.

فتح باب مكتبه. ولم يكن ليخطر على بال أحد أن مكتب رئيس محطّة صغيرة كهذه يمتلك مكتباً مؤثّثاً بمثل هذا الأثاث الفاخر. كانت السجّادة الفارسية تتألّق بورودها الحمراء والزرقاء، أما المناضد التركية الثلاث، فكانت تُضاعف من هذه النكهة الشرقية. وعلى مكتبه الضخم، المُطعَّم بالأكاجو، تتمايل نخلة عملاقة، فتُشكِّل سعفاتها المروحيّة نوعاً من المظلّة فوق الكنبة المصنوعة في البندقية. حين يدخل واحدنا إلى هذا المكتب، يُخيّل إليه أنه سيُحمَل على كرسي، يرفعه حمّالون، إلى جانب رئيس المحطّة، وكأنه الحبر الأعظم. وهناك أيضاً ساعة حائط رخامية فوق خزانة صغيرة مزخرفة، لها بدل الرقّاص ثلاث كرات مذهّبة، تدور في اتّجاه، ثمّ لا تلبث أن تدور في الاتّجاه المعاكس، ومَنْ يسمع دقّة هذه الساعة يلتفت ويقول: يا لهذه الدقّة الجيّدة! وكان في المكتب أيضاً كنبة مماثلة لما يوجد في الإدارات عادةً، وهي من القماش المشمّع بلون الشوكولا، وعلى الحائط، لوحة تُصوِّر قاطرة سريعة لحظة خروجها من محطّة ويلسون(*) مُطلقة بخاراً على خطوط السكّة، وفي الأجواء ومنطلقة في عُباب هذه السحابة، إنها صورة عزيزة على قلب كل مستخدَم في سكك حديد الدولة، وبشكل خاصّ، على قلب رئيس محطّتنا الذي كان له هدفان في حياته - أن يُعيَّن مُفتّشاً في سكك حديد الدولة، وأن يحمل اسماً مميَّزاً. السّيّد البارون لانسكي دولاروز. ذلك أنه في معرض أبحاثه في شجرة نسبه وجد أنه يحمل قليلاً من الدم الأزرق في عروقه. وهكذا

(*) المحطّة الرئيسة في براغ.

يكون امتلك هذه الميزة مرّتَيْن، بما أنه يُقال إن عمّال السكك الحديد هم من النبالة الزرقاء.

فيما عدا ذلك، فإن رئيس المحطّة كان يُبدي شغفاً - دون أن يحيد عن كونه شغفاً عادياً - بتربية الحمام. فقد كان يُربّي قبل الحرب حمام نورمبرغ وباغديه، تلك الحمائم الصغيرة التي لها سهام عدوانية سوداء وبيضاء على الجناحَيْن، ويذهب بنفسه، كل يومَيْن، لتنظيف تمرادها واستبدال المياه والحبوب. ولكنْ، حين اجتاح الألمان بولونيا ترك رئيس المحطّة التمراد مقفلاً، وقبل أن يغادر إلى "هرادك"، أمر مساعده بخَنْق كلّ حمائم النورمبرغ هذه. وبعد أسبوع، عاد وأحضر معه حماماً بولونياً، حمام الوشق الذي يتميّز بحوصلة جميلة زرقاء وجناحَيْن رائعَيْن مزيَّنَيْن بمثلّثات رمادية وبيضاء متشابكة مثل مربّعات غرفة الحمام.

كنتُ واقفاً بين الخطوط الحديدية أشعر بأنّ ثمّة من يُراقبني. فاستدرتُ، ورأيتُ، من خلال النافذة المفتوحة، عينَي زوجة رئيس المحطّة التي كانت تُطعم إوزّة، وترمقني بنظراتها. كنتُ أحبُّ السيّدة لانسكي كثيراً، فقد كانت تقضي السهرة معنا بطيبة خاطر، في المكتب، تحوك غطاء طاولة كبيراً من الكروشيه، وكانت جلستها بيننا تشيع الارتياح، ومن بين أصابعها تنبثق باستمرار ورود أخرى وعصافير أخرى، وتضع أمامها على طاولة التلغراف كتاباً، تنكبّ عليه بين الحين والآخر لأيّ خيط تنتقي، وكيف تستخدمه، حتّى يكاد مَنْ يراها يحسب أنها عازفة أرغن تفكّ رموز مقطوعة موسيقية. كانت تذبح أرنباً كل يوم جمعة. تذهب إلى القفص، وتُحضر أرنباً، تضعه بين ركبَتَيْهَا، وتمرّر على رقبته نصل سكّين غير مسنون، وتدع الحيوان

ينزف دمه وهو يصيح، ويصيح طويلاً، حتّى يخور صوته الضامر، وزوجة الرئيس في الأثناء تُحافظ على الملامح نفسها التي كنّا نلمحها على وجهها وهي تطرّز غطاء الطاولة الكبير. كانت تقول إن لحم الأرنب الذي يُذبَح كما يجب أشهى بكثير وأكثر طراوة. كنتُ أعرف مسبقاً كيف ستذبح هذه الإوزّة. سوف تقرفص فوق الطير ممسكة به بين ساقَيْها، وتُطبق منقاره البرتقالي بإصبعَيْها، وتُخفِضُه لِصْق الحوصلة، تماماً كما يُطوى نصل المطواة، ثمّ ستعمد إلى انتزاع ريشة من أعلى الرأس، بعناية، وبعد ذلك، يسيل الدم بطيئاً في الوعاء، وعندما يتهالك جسم الطير، ويتراخى، ستخفض السّيّدة لانسكي جلستها أكثر فأكثر حتّى تسند مؤخّرتها على عقبَيْها.

- أيُّها المتمرِّن "هرما"! نادِ رئيس المحطّة.

أدخلُ إلى المكتب، أحيّي واقف متأهّباً.

- المتمرّن هرما يستأنف الخدمة!

- اجلس، قال رئيس المحطّة.

نهض من وراء مكتبه، وحطّت سعفة على رأسه، مكث لبرهة يتفحّصني، عيناه المحزونتان تُحدِّقان في برَّتي، ثمّ أكمل تزرير ياقاتي.

- إذنْ، يا هرما، هل لاحظتَ أنه لم يعد لدينا عاملة تلغراف؟

- زدنيكا لانج؟ قلتُ.

- أنتَ تتحدّث عن ملاك! زفر رئيس المحطّة. ولكنكَ لم تسمع شيئاً ممّا يُقال في البلدة؟

- لا. ما الأمر؟

- أمرٌ غريب. تكاد تُنظَّم رحلات سياحية بتكاليف مخفّضة للتفرّج على صديقنا "هوبيكا"! كما لو أنه من ذوات الأربع! وبرأسَيْن. لقد تسبّب بسمعة، لا بأس بها، لمحطّتنا الهادئة! يا له من عمل!

- لا أعجب من شي يصدر عن السّيّد هوبيكا، قلتُ. فعندما كنتُ لا أزال متمرّناً في دوبروفيس، وكان السّيّد هوبيكا مسؤولاً عنّي، كان عاملو الخطّ جميعهم يأتون للتّفرّج عليه ... وليعلموا أخيراً كيف استطاع أن يفرز كنبة رئيس المحطّة في رفقة سيّدةٍ ما ...

- كنبة نمساوية من القماش المشمّع؟ سأل رئيس المحطّة جاحظ العينَيْن، مثل هذه؟

- هي نفسها، بالضبط.

- ميلوش، اجلس.

عادت ملامح الرقّة إلى وجه الرئيس. وجلس بدوره، مُفرْشِخَاً على منضدة، ووضع يده في شكل قمع على أذنه.

- "وكان آخر قطارات الليل البطيئة قد غادر المحطّة"، همستُ في أذن رئيس المحطّة. "وكنّا قضينا السهرة في رفقة فتاة جميلة وبالغة

الأناقة، تدخّن السجائر، وتحتسي النبيذ". ونحو منتصف الليل، قال لي السّيّد هوبيكا: أنتَ لست سوى موظّف متمرّن، يا ميلوش، ولكنني أثق بكَ. سوف تنوب عنّي لساعة أو اثنَتَيْن. وهكذا مكثتُ في الخدمة في مكتب المحطّة، فيما اصطحب السيّد هوبيكا السيّدة إلى مكتب الرئيس. أما أنا، فألصقتُ أذني بالباب، وأصغيتُ: يا حبّي، إنه لذيذ، الجسم في حاجة إليه ...

- الجلد الأشعر المنتوف لخنزير ...

نهض رئيس المحطّة، ونظر عبر النافذة، أبعد من الحمائم التي كانت ترخي أعناقها وتهدل، نحو الرصيف، حيث كانَ السّيّد هوبيكا واقفاً.

- فقط لو كانت تبدو على ملامحه طباع نكاح النساء هذا! زعق رئيس المحطّة، وأدخل السّيّد هوبيكا إصبعاً في إحدى أذنَيْه، وأخذ يرجّها بعنف، كما لو هناك ماء في تلك الأذن.

- إن أسوأ المياه هي المياه الراكدة. قلتُ بنباهة. عند الواحدة بعد منتصف الليل، وصل قطار محمّل بالسّكّر، وكنتُ لا أزال أصغي. وعندئذ سمعتُ جلبةً في مكتب الرئيس، جلبة تشبه الصوت الذي يحدثه كشط التابوت ... ثمّ سمعتُ رضّة! فهُرعت إلى داخل مكتب الرئيس، ولو تعلم ماذا رأيتُ؟ كانت السّيّدة مستلقية وهي عارية تماماً على الكنبة، ممدّدة على ظهرها فاتحة ساقَيْها، هكذا! وكان السّيّد هوبيكا على الأرض، بلباسه الداخلي، مثل جندي كنيستنا يوم فُتح قبر سيّدنا المسيح. وقال لي، لقد فاتني هدف البليار المزدوج، يا ميلوش! لقد وقعتُ عن مذبح الغرام ...

- يا للثعلب المخَّاط! صرخ رئيس المحطّة.

أسند جذعه بيَدَيْه على إطار النافذة، محدِّقاً في السّيّد هوبيكا الذي كان يقف على الرصيف، مُنتصباً على ساقَيْه المنفرجَتَيْن، يتأمّل في السماء.

- وكيف كانت مستلقية على كنبة رئيس المحطّة، تلك العاهرة؟ كيف؟ زعق رئيس المحطّة.

- لو سمحتَ، سأريكَ كيف، قلتُ له وأنا أشير إلى الكنبة ذات القماش المشمّع، وقفزتُ في شبه قفزة الموت، وهويتُ على ظهري. فانحنى عليَّ رئيس المحطّة متوعّداً.

- إذا كان يريد أن يتمرّغ على هذا النحو مع البغايا، فليفعل ذلك في ردهة الانتظار، وليس على كنبة الرئيس!

- ذلك أن رئيس المحطّة وحده يحقّ له أن يجلس على كنبة رئيس المحطّة! قلتُ.

فصرخ - "أنتَ تدرك ذلك، ولكنْ، ما من مقدّسات بالنسبة لهذا الخنزير الخنوص"!

فجلستُ، وقلتُ: "ولكنْ، أيّها الرئيس، ليس هذا كل شيء، انظر"! أمسكتُ كُمَّ رئيس المحطّة، وجذبتُه لأُريه الكنبة. "أترى؟ هنا، في هذا المكان بالذات، كانت القماشة المشمّعة ممزّقة بالعرض ...".

- مزَّقا الكنبة! صرخ رئيس المحطّة.

كنبة رئيس المحطّة باتت ممزّقة! من وسطها! وهذا كله لأن الناس لم تعد تؤمن بشيء. لا بالله، ولا بالأساطير، ولا بالخرافات، ولا بالرموز! بتْنا وحيدين في العالم، إذنْ، كل شيء بات مُباحاً. أنا لستُ في عدادهم! أنا أؤمن بالله. ولكنْ، لجلد الخنوص هذا ليس هناك سوى شواء الخنزير، ومَرَق القدير، والكرنب.

ما عاد رئيس المحطّة يقوى على الكلام، إذ كان ينفخ ويشخر، وعيناه مسمَّرتان نحو الرصيف، على ظهر السّيّد هوبيكا.

ثمّ قال بعد هنيهة:

- "إنه شيطان. ذاك صبيّ كان باستطاعته أن يصبح، منذ عشر سنوات، رئيس محطّة من محطّات الخطّ الواحد الصغيرة، وحتّى الآن لم يحظَ ولو بنجمة واحدة. فما إن يُتّخذ قرار بترقيته حتّى يجد أسهل وسيلة لإثارة فضيحة، بينما أنا أواصل تقدُّمي في السِّلْك، كما ترى".

فقلتُ له:

علمتُ بأنه سيتمّ تعيينكَ مُفتّشاً لسكك حديد الدولة.

- هذا صحيح.

فزعقتُ مُغتبطاً:

- إذنْ، سيكون لديكَ نجمة واحدة كبيرة مع كتفية بدل النجوم الثلاث الصغيرة!

- عين الصواب، يا ميلوش - ثمّ أصبح المفتّش ساهماً – سوف أريكَ نموذجاً عنها، قال الرئيس وهو يفتح الخزانة، ويتناول منها سترة جديدة خيطتْ عليها كتفيّتان مزيّنتان بنجمَتَيْن الماسيَّتَيْن. لو يُحتذى مسلكي مثالاً، ولكنْ، قد يُقال إن مثلي مثل مَنْ يرمي الجواهر إلى الخنازير.

قلتُ: - إنّ مفتّش السّكّة الحديد نظير "القومندان"، في الجيش، أليس كذلك؟

- بالضبط، يا ميلوش. قال رئيس المحطّة.

كان قطار بضائع طويل على الخطّ الأوّل، يتقدّم بأقصى سرعته، فترتطم العربات بوصلاتها، بضربات قوية ومُنتظمة، فتُحدث جلبة كبيرة. وكان رئيس المحطّة يطوي بإعجاب أطراف السترة وكُمَّيْها، ويحرص على أن لا يدعكها. ثمّ ذهب لإحضار علبة الحبوب، وفتح النافذة، فدخلت الحمامات إلى المكتب وهي تتخاصم في طيرانها، وتتنازع فيما بينها، لتحطّ على كتفه، وفي النهاية، اتّسعت الكتف لها كلها، جاثمة على كتف رئيس المحطّة، وكأنها فوق نصب أو فوق نافورة ماء، تنحني وتحشر أبدانها الصغيرة به ولم تكن تبالي حتّى بالحبوب، ذلك أن مودّته نحوها تعني لها أكثر بكثير، فكانت تنقد له وجهه، ولكنْ، برقّة، كما يفعل الأطفال الصغار. وكان قطار المساء ابتعد ومعه ضجيجه. ذاك الضجيج الذي يرافق القطارات العابرة أينما ذهبتْ، كما ترافق مربّعات النوافذ ومثلّثاتها اللامعة قطارات المساء في زمن السِّلْم.

- ولكنْ، ما الذي قد يفعله السّيّد هوبيكا مع زدينا؟ سألتُ.

- دناءات، أجابني رئيس المحطّة، وابتسم، ومطّ شَفَتَيْه المزمومَتَيْن إلى الحمامات. حتّى البهيمة لا تقترف ما اقترفه الوغد! ولكني، يا ميلوش، لن أعود وأستسلم للغضب، من أجل هذا، إن المجلس التأديبي في هراديك يهتمّ بالقضية. باختصار، كان هوبيكا في وردية الليل مع زدينا، فقلبها، ورفع تنّورتها، وختم على مؤخّرتها بختم المحطّة، حتّى إنه لم ينسَ ختم التاريخ. وفي صباح اليوم التالي، عادت عاملة تلغرافنا المسكينة، ورأتْ والدتها الأختام، وهُرعت إلينا، وأرادتْ أن ترفع شكوى إلى الغستابو. فكنتُ مجبراً على القيام بتحقيق إداري، ورفعتُ التقرير! يا للفظاعة! فقد استُدعيَتْ زدينا إلى مركز الإدارة، حيث كشف مدير سكك حديد الدولة شخصيّاً على الأختام. يا للفضيحة! زعق رئيس المحطّة، ففزعت الحمائم، وانزلقتْ على ذراعَيْه الممدودَتَيْن، وصفّقتْ بأجنحتها، كي لا تفقد توازنها.

ولكنْ، هناك، في الناحية الأخرى، كانت السّيّدة كنسكي عائدة من المزارع، تمتطي مهراً أسود، يعدو بها خبباً، بمحاذاة سياج المحطّة، وكانت السّيّدة كنسكي والمهر الأسود يبدوان كجسم واحد. خرج رئيس المحطّة إلى الرصيف مصحوباً بحمائمه، وحيّا السّيّدة الكونتيسّة التي كانت تعبر في جواره، فاجتازت الكونتيسة الخطوط، واتّجهتْ بالمهر إلى مدخل المحطّة، ثمّ ترجّلتْ بقدر من الرشاقة حتّى إن بنطالها المصنوع من جلد الخيول لامس بالكاد السرج الجلديّ، فقبل رئيس المحطّة يدها، وسار إلى جانبها بضع خطوات، والحمامات لا تزال على كتفه دون أن تُبدي السّيّدة الكونتيسة أيّة دهشة، وكأنه أمر بديهي ما تفعله هذه الحمامات، ومدّتْ لها يدها الرقيقة المقفزة، وتابعت حديثها مع رئيس المحطّة.

عندئذ، كان باستطاعة السّيّد هوبيكا أن يُثبت نظراته على السّيّدة الكونتيسة.

- أتعلم ما أشتهي أن أكون، يا ميلوش؟ أودّ لو أكون محلّ هذا السرج، وأشار إلى المهر الأسود، وبصق، وابتسم، وأضاف بنبرة حميمية: "لقد رأيتُ حلماً جميلاً، يا ميلوش. لقد حلمتُ بأنني عربة، وأن السّيّدة الكونتيسة تمسك بمقبض دفّتي، وتقودني إلى الليفربول"، ومن جديد، عاد ورمق الكونتيسة بنظراته الوقحة، وحدّق في ساقَيْها خاصّة فيما كانت تبتعد برفقة رئيس المحطّة نحو إهراء الحبوب، الليفربول، وانتفض رئيس المحطّة ممّا كان يسمعه، بالتأكيد، من فم الكونتيسة، وكانت حركته مفاجئة حتّى إن الطيور على كتفه فَزِعتْ، وطارتْ في اتّجاهات مختلفة. ومدّتْ له الكونتيسّة يدها التي قبّلها بوقار، ثمّ أراد أن يساعدها على وَضْع قَدَمَيْها في الرّكاب، ولكن الكونتيسة ردعتْه بحركة من يدها، وامتطتْ صهوة المهر بقفزة واحدة، وانفرجتْ ساقاها لبرهة خاطفة، فمسح السّيّد هوبيكا على فمه، وأعلن:

- هوذا ما أسمّيه كَفَلاً جميلاً! وَبصَقَ.

كانت السّيّدة الكونتيسة تعدو على مهرها، وتبتعد على طريق القصر، والمهر يبدو ظلاً واضحاً فوق الثلوج التي تلتمع تحت الشمس الزهرية. كان السّيّد هوبيكا يُقسم النساء إلى فئَتَيْن: فئة اللواتي حظينَ بتكوين أفضل ما تحت الزنّار، فيسمّيهنّ، على غرار السّيّدة الكونتيسّة، الأكفال الجميلة، أو الأرداف الجميلة، وفئة اللواتي حظينَ بمؤهّلات ما فوق الزنّار، ويمتلكنَ صدراً جميلاً، فكان يسمّيهنّ النُحُور الجميلة، أو اللّبّات الجميلات، كما يُقال عن الفَرَس أو البقرة.

وصل رئيس المحطّة إلى باب المحطّة راكضاً، تبدو عليه علائم الغيظ:

- هوبيكا، حتّى السّيّدة الكونتيسة تعلم بالأمر!

واستدار داخل إطار الباب، وهزّ برأسه، وعلى وجهه ملامح الرصانة، وصعد السّلّم، ودخل إلى المطبخ، حيث أخذ يضرب الأرضية بواسطة كرسي، وكان ضربه عنيفاً حتى بدا جبس سقف المكتب يفتُّ، ويتساقط. ثمّ راح يزعق نحو فناء التهوية:

- إنها لعنة عصر الشبق! كل شيء بات مبالغاً في شبقه! أينما كنتَ لا ترى سوى المثيرات الجنسية! مراهقون وصبيان يتولّهون بغرام مربّيات الإوز! القراءات وأفلام الإثارة تؤدّي إلى مآسٍ غرامية! فليُشهَّرْ بالكتّاب والمُربّين وباعة الكُتُب والصور البورنوغرافية الفاضحة!! يجب أن نضع حدّاً لمخيّلة الشّبّان الفظيعة! لقد قطع جثّة بائعة الأجبان إرباً إرباً، وكان باستطاعته أن يقطع جثّة ابنة عمّه، لو أُتيح له ذلك! العطّار يعرض في واجهة دكّانه مانوكان في حجم امرأة، عاري الردفَيْن، فيتدافع الشّبّان للتّفرّج بلا حياء! وحين يدخل واحدنا إلى محترف رسّام، يُخيّل إليه أنه في حانوت جزّار، يبيع اللحم البشري. إنها فظاعات آكلة لحوم البشر. تستطيع أن تجد الـ"فرانسكا" في حقيبة، ومَنْ يبحث عن رجل أشقر، بسنٍّ ذهبية. قبل الجريمة، اشترى لها تفّاحاً أوسترالياً من كافيتريا "لاكورون". هيا! لا شيء سوى اللحم! أرى جرائم تُرتكَب بدافع الغُلمة! وعلى مقعد المتّهمين، يجلس الأساتذة الذين يتسامحون مع التربية الجنسية. كما تعاظمت الميول اللاأخلاقية وحسّ الاستمتاع، ازداد عدد النعوش، وتضاءل

عدد المهود! هكذا كان يزعق رئيس المحطّة في الطابق الأوّل، وهو يخاطب، من خلال فناء التهوية، مكتب المحطّة.

ذلك أن رئيس المحطّة كان عضواً في "ج. ت. أ"، جمعية تطهير الأخلاق، ومقرّها في براغ، ومن ناحية أخرى، كانت السّيّدة الكونتيسة، حين تحجز مقطورات لنقل البهائم إلى المسلخ، غالباً ما تُوجِّه إليه اللوم، لكونه لا يتشدّد كفاية فيما يتعلّق بالإيمان، ذلك أنه يوم تنهار الكنيسة الكاثوليكية، فالعالم كلّه سينهار. وكان رئيس المحطّة لا يفوته أن يؤدّي التحية، كلّما مرّ بكنيسة، يؤدّي التحية العسكرية، إذا كان مرتدياً البزّة، أما حين يصادف أن يكون مرتدياً ثيابه المدنية، فيرفع قُبّعته التيرولية، وينحني. يُغمغم بصوت خفيض، ويتحدَّث إلى تلك الكنيسة.

طقطقتْ مجموعة المكابح، وأخذت اللمبة الحمراء الصغيرة تغمز، ثمّ تحوَّل لونها إلى الأبيض، فسحبتُ مفتاح المجموعة، وخرجتُ إلى الرصيف، ووقفتُ تحت السقيفة المائلة، كانت القاطرة تصفّر لحظة دخولها إلى المحطّة، ورئيس المحطّة يهبط السّلّم، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث، وكأنه تطهّر لكثرة ما زعق في فناء التهوية، كما لو أنه حائط مبكى، ذلك الفناء. كان لزوجته، كما يروي هوبيكا، الحقّ بمثل هذا الزعيق، هي أيضاً، وكانت تدعه يفعل، برغم كونها ابنة جزّار من "فولاري"، ولكنها كانت تثور ثائرتها أربع مرّات في السنة، وحين كان رئيس المحطّة يزعق بقوّة، ويرشق رأسها بما ينبغي أن تكون عليه امرأة بمعنى الكلمة، كانت السّيّدة لانسكي ترشق رأسه بكل ما تقع عليه يدها. وذات مرّة، قبل عيد الميلاد، حين رأتْه يزعق بصوت أقوى ممّا اعتادتْ عليه، جرّتْه إلى الحمّام، وصفعتْه، فوقع رئيس المحطّة في المغطس في جوار شبوط العيد.

دخل رئيس المحطّة إلى الصالة، ولاحظ أن الأمور ليستْ على ما يرام.

- إذنْ، يا صغاري، قال بلهجة أبوية، ما هو الوَضْع الآن؟

- كان جندي يرافقنا عند منصّة الوصول، قال هوبيكا بشيء من الامتعاض.

- القطار العسكري الموضوع تحت الحراسة الخاصّة؟ قال رئيس المحطة جاحظاً عينَيْه.

- واحد مع ثلاث علامات تعجّب، قلتُ.

- هل قرأتُما هذا؟ قال الرئيس وهو يشير إلى بلاغ مذيّل بتوقيع مفوّض الرايخ.

- أجل، قال هوبيكا.

- وهل فكّرتُما في الأمر؟

- لقد فكّرنا، وقرّرنا، وانتهى الأمر، قال هوبيكا مبتسماً.

- ولكنْ، قد يُعدّ هذا عملية تخريب، قال رئيس المحطّة قبل أن يخرج إلى الرصيف.

في قاطرة القطار العسكري تحت الحراسة المشدّدة كان يقف، شاحباً مثل بياضة، المهندس هونزيك، رئيس فريق الجرّ، الذي ذهب إلى "ليبوخ" لإحضار هذا القطار بنفسه. كان يقف هنالك رهيناً، ينظر أمامه بثبات، ويضمّ يَدَيْه، يقف جاثماً بثقله على كوّة القاطرة الصغيرة، ويشير بيَدَيْه نحو نوافذ المحطّة وبابها، لكي يُظهر لنا بوضوح كم يعاني بسبب محطّتنا الصغيرة.

أدّى رئيس المحطّة التحية العسكرية، فيما توجّهتُ، أنا، إلى ناحية الخطوط، وحيّيتُ بدوري. توقّفت القاطرة، وترجّل منها اثنان من جنود الـ "أس. أس" ممشوقا القامة، وفي يد كلّ منها مسدّس برابلّوم، وتفحّصا بأنظارهما للحظة قُبّعتي الحمراء. فَرْقَعْتُ عقبيَّ، وأدَّيتُ التحية العسكرية، ولكن عسكريَّي الـ"أس. أس" اقتربا، أحدهما إلى يساري، والآخر إلى يميني، ووضعا فوّهَتَي سلاحَيْها الأوتوماتيكيَّيْن عند منبت رئَتي، وأجبراني على تسلُّق سُلّم القاطرة، وبدأ القطار بالمسير. أما أنا، فبدا لي الأمر طريفاً، برفقة هذَيْن الجنديَّيْن الجميلَيْن اللذَيْن يتخيّل المرء أنه يليق بها أكثر بكثير أن ينصرفا إلى كتابة القصائد، أو الذهاب لممارسة لعبة التنس، ولكنهما كانا معي في تلك القاطرة، وكان المهندس هونزيك برفقة آمر القطار، وهو نقيب في الشرطة يرتدي الكسكيت الجبلية النمساوية، ويحمل على وجهه ندبة طويلة، تحيط بالفم، وتمتدّ حتّى أسفل الذقن، ثمّ الرقبة، والسائق أيضاً الذي يرتدي البزّة النظامية، كان ممسكاً بعتلة السرعات، ويجلس على مقعد مَحشوّ بالخِرَق؛ كانت قاطرة ألمانية تسير بفحم الانتراسيت، وبجوار مقعد السائق عتلة، تُشبه المقبض الذي نراه عادة على كراسي المقعدَيْن التي يمكن تحويلها. وكان عنصرا الـ"أس. أس" يُمسكان بمسدّسَيْها البرابلّوم مُصوّبين إلى منبت رئَتي، وعيناهما اللتان تُشبهان فوّهَتَي سلاحَيْهما، "كانتا مثبتتَيْن على نقيب الشرطة الذي يتأمّل المنظر. عند المباني القريبة، رأيتُ شخصاً يفتح باب كوّة، ويصعد إلى سقف التوتياء، مدفوعاً بفضوله، ثمّ رأيتُه يرفع يَدَيْه، وكأنه يستسلم. فصرخ عليه أحد الذين يستقلّون القطار، أو صوّب أحدهم سلاحه باتّجاهه. كان واقفاً على السطح رافعاً يَدَيْه، كما لو أنه يشرب نخب الشمس، إنه يوردان، أبله البلدة الذي يرعى البقرات،

ويضع بعد ظهر كل يوم أحد قنّينة بيرة في شُبيكة صيد، ويذهب للنزهة على متن قارب، وبين برهة وأخرى، يسكب لنفسه قَدَح بيرة مثلّجة، ثمّ يقف وسط القارب، كما كان يقف على سقيفة التوتياء، يقف إذن وسط القارب، ويرفع ذراعَيْه، ويشرب نخب الشمس، كان يبتهل إلى الشمس، ويصرخ إيه! إيه! إيه! ثمّ يُفرغ كأس البيرة بجرعة واحدة. ورأيتُ أيضاً السّيّدة لانسكي خلف نافذة المطبخ، وكان يفصل بين عينَيْها قضيب الواجهة النحاسيّ الذي عُلّقَتْ عليه الستائر الصغيرة، فرفعتْ يدها، ثمّ سارت القاطرة الموضوعة تحت الحراسة الخاصّة بمحاذاة المقطورة المنخورة بالرصاص، والمركونة منذ وقت على الخطّ الخامس، فالتفتُّ لأرى ما قد يبدر عن عسكريّ الـ"أس. أس" فكانا ينظران إليّ، وكأني أنا مَنْ أطلق الرصاص على هذا القطار.

- لاحِسُ أقفية! قال أحد عُنصري الـ"أس. أس".

- وغد مثل هذا، من الأفضل أن نقتله فوراً، قال الآخر. ثلاثون دقيقة من التأخير، أردف الأوّل، ولكزني بقوّة بماسورة مسدّسه البرابلّوم بين أضلاعي.

كم كان الأمر مختلفاً منذ ثلاثة أشهر، حين ذهبتُ طوعاً إلى حافة الموت، انحنيتُ على الصندوق، كان المساء، وكانت عاملة الصندوق صهباء. تذكرة، قلتُ. فعرفتْني، وقالتْ: ولكنْ، إلى أين، يا سيّد؟ قلتُ: إلى هناك، حيث تنظر عيناك لأوّل مرّة. فضحكتُ ضحكة متكلّفة: كيف هذا، لأوّل مرّة؟ التذاكر أمام عينَي طوال النهار، تذاكر سكّة الحديد هذه! قلتُ: اسمعي، يا آنسة، انظري في وجهي، واسحبي تذكرة باليد اليسرى، كانت تضحك هازئة. بالله عليكَ،

أستطيع أن أبيع التذاكر في العتمة الكاملة. وكانت تضحك لأمّها، تحسب أنني أمازحها. عندئذ قلتُ لها: الصفُّ السابع، الخانة السابعة، الرَّقْم سبعة، كما عند اليهود. فمدّتْ يدها دون أن تخفض أنظارها عنّي. إذنْ، هي تذكرة ذهاب إلى بيستريس في بينيسوف، وثمنها ثمانية وعشرون كورونا. مكتبة

كانت القاطرة تهتزّ، وعلى مدى أنظارنا، يحدث ذوبان الثلوج تكّاتها المعتادة من لُبّ البلّورات الملوّنة. وفي حفرة ثلاثة جياد نافقة، كان الألمان رموها من العربة في أثناء الليل. فقط فتحوا الباب، ورموا الجيف، ورأيناها ممدَّدة في الحفرة الطويلة بمحاذاة السّكّة، قوائمها مرفوعة في الفضاء، كأنها أعمدة تسند بوّابة السماء غير المَرئية: كان المهندس هونزيك ينظر إليّ، وتمتلئ عيناه كآبة وحقداً، لأن هذا القطار المصحوب بحراسة خاصّة قد تأخّر في قطاعه. وكانت غلطتي أنا بالتأكيد، فمن الطبيعي، إذنْ، أن يُجبرني هذان العسكريان على الصعود إلى القاطرة، ولا غاية لهما سوى أن يغرزا ماسورة مسدّسَيْهما البرابلّوم في قفا رقبتي، وأن يضغطا، بعد إشارة، على الزناد، فينخرني الرصاص، ثمّ يفتحا الباب ... هذا بالضبط ما كنتُ أحسّ به، وفي الوقت نفسه، كنتُ أحدّث نفسي قائلاً إنهما غير جادَّيْن بما يفعلانه، وإنهما غير قادرَيْن على القيام بذلك، لأنها شخصان وسيمان جداً، ولأنني لم أستطع في حياتي، إزاء مَن هم بمثل هذا الجمال، أن أتلفّظ بعبارة واحدة، لها معنى. كنتُ أتصبَّبُ عَرَقاً، وأتلعثم، مأخوذاً بالوجوه الجميلة، لدرجة أنها كانت تسحرني، ولم أستطع، في حياتي، أن أنظر مباشرة إلى وجه جميل.

كان نقيب الشرطة، في المقابل، رجلاً دميماً. فهذه الندبة

الطويلة التي تسم وجهه، كما لو أنه وقع في طفولته، واصطدم وجهه بآنية صدئة، ورأيتُ أن نقيب الشرطة هذا ينظر إليّ. رفعتُ ذراعي، وتشبّثتُ بالمقبض المتدنّي من سقف القاطرة. حسبتُ أنني أستطيع أن أسمح لنفسي بذلك، لأن نقيب الشرطة ينظر إليّ، ويرى بوضوح أني لستُ سوى كائن مسكين، يطيل المكوث في مراقبة الخطوط، مسكين قيل له، هناك في الإدارة العليا في هراديك كراكوف، أن يمكث طويلاً في مراقبة الخطوط، وأن يخفض أو يرفع مقابض الملوِّحات، فيما جيوش الرايخ تتدافع عبر محطّته، في البداية نحو الشرق، والآن في الاتّجاه المعاكس، نحو الغرب. وكنتُ أقول في سرّي إن الألمان معتوهون بالتأكيد. معتوهون خطرون. وكنتُ أنا نفسي معتوهاً بعض الشيء ولكني أدفع، أنا نفسي، ثمن جنوني، فيما الألمان دائماً يجعلون الآخرين يدفعون. فما أزال أذكر قطار نقل الجنود على الخطّ الخامس، ذهب الجنود إلى بقالة البلدة لشراء لحم الخنزير الموضَّب والسكاكر ومكعّبات العسل الصناعي. تناول أحد الجنود، خفية، المكعّب الذي تستقيم عليه المكعّبات الأخرى، فانهار هَرَمُ العسل الصناعي كلّه. عَدّ البائع المكعّبات، فوجد أن هناك خمسة مكعّبات مفقودة، فجمع الضابط فرقته، وقام بتفتيش القطار حتّى هبوط الليل، بهدف العثور على مكعّبات العسل الصناعي الخمسة، وحين لم يعثر عليها، ذهب بنفسه إلى البائع، فبادره بالتحية، وقدّم له اعتذاراته بطريقة استعراضية ... ربمّا كانوا الألمان أنفسهم الذين يرافقونني اللحظة على متن القاطرة، ربمّا كانوا هم أنفسهم.

غمز السائق في اتّجاهي بحركة ودّيّة، ثمّ قلّب الفحم برفشه، وشرع يرمي الفحم في مؤخّر مصنع الفرن، ثمّ في الوسط، بحركات

موقّعة، حريصاً على أن تكون الجرّافة الأخيرة على طرف المصنع. وكانت عينا نقيب الشرطة مثبّتَتَيْن على معصمي، حيث أحمل، أنا أيضاً، أثر ندبة، كان طرف كُمّي قد شمر قليلاً، والنقيب ينظر إلى هذا الجرح الملتئم، كما لو أنه يقرأ في كتاب. لقد كان هذا النقيب يعرف، بالتأكيد، أشياء كثيرة، وينظر إلى كل شيء، كما لو أنه سبق له أن كان في الناحية الأخرى، وكانت عيناه تشبهان قطعَتَي صوّان. كانوا جميعهم منشغلين في تفحُّص معصمي، فمَدّ النقيب سوطه، وشمّر عن كُمّي الآخر، وتفحّص الندبة الأخرى.

- أيها الرفيق، قال.

وأشار بيده، فَخَفَّتْ سرعة القطار الموضوع تحت حراسة خاصّة، وابتعدت فوّهتا مسدّسَي البرابلّوم عن ظهري، ولم أعد أنظر إلى الجنديَّيْن الوسيمَيْن، كانت عيناي تحدّقان في سقف القاطرة، في اللوحات المعدنية المحرّزة التي لا تكفّ عن الاهتزاز، فيما القاطرة تنهب السّكّة الحديد.

- هيّا، اذهبْ، قال النقيب.

- شكراً، قلتُ هامساً.

كنتُ أتساءل طوال الوقت ما إذا كانت مجرّد دعابة، ففتحتُ الباب، ووضعتُ قَدَمي على أولى درجات السّلّم، ثمّ هبطتُ الدرجات الأخرى، واحدة تلو الأخرى، ومَدَدْتُ ساقي، فوقعتُ على طرف السّكّة، كما لو كنتُ أرقص الرقصة الروسية، ثمّ خطوة أخرى وانتصبتُ واقفاً، عاودت القاطرة سيرها، ورأيتُ عربات النقل

المسطّحة تعبر أمامي، واحدة تلو الأخرى، محمّلة بدبّابات التايغر، وعلى جوانبها، جنود يحملون في أيديهم علب الطعام المحفوظ سعة كيلوغرام واحد، كان الجنود شمّروا عن سواعدهم، وأخذوا يشكّون قطع اللحم برؤوس حرابهم، ويأكلون. أما بعضهم الآخر على حافة العربات، وكانت أسلحتهم الأوتوماتيكية مُلقاة على رُكبهم، وسيقانهم المدلاة تتأرجح، وكأنهم يجلسون على ضفّة نهر صغير. وكنتُ كلّما عبرتْ مقطورة من أمامي، أشعر بأن ظهري ما يزال يُشكِّل هدفاً سهلاً للإصابة.

كانت آخر عربات القطار عربة بضائع مفتوحة بلا غطاء، وكانت تتدلّى منها جوارب نسائية سوداء، لا بدّ أن تكون مُرسَلَة لبعض الممرّضات في إحدى مستشفيات الريف، أما أنا، فكنتُ لا أزال في مَرمى البرابلّوم والمسدّسات والرشّاشات الألمانية، لأن الألمان، وبتُّ أعرف ذلك بعد التجربة، لا يدري أحدٌ بالضبط ما يجول في رؤوسهم. فالسّيّدة كراسكوفا، جارتنا، اعتقلها الألمان عام ١٩٤٠، أي منذ بداية الحرب، ولم تَعُد إلا في العام الماضي، يوم عيد الميلاد، وقضتْ هذا الوقت كله، هذه السنوات الأربع الطوال، في معسكر اعتقال بيكارنا، حيث كانت تغسل الدماء بعد كل عملية إعدام، وكان رئيس ثلّة الجلادين لطيفاً معها، يُعطيها قطع "الجامبون"، ويطلب منها أن تُنشد له أغنية "أيّتها العينان السوداوان، لماذا تبكيان؟" ويخاطبها بـ "عفواً"، و"لو سمحت"! ثمّ أطلقوا سراحها، وأعادوها إلى بيتها دون سابق إنذار، ووجّهوا لها، فضلاً عن ذلك، رسالة اعتذار، ولكن السّيّدة كراسكوفا كانت فقدتْ صوابها، فوجدوا لها عملاً في الـ"س. ت. و" في مشاغل التسخين، وضعوا في يدها مزيتة، وباتت الآن تسكب الزيت، وتمسح مَدْرجة كريّات الآلات.

اقتربتُ من منعطف السّكّة، ومن بعيد كنتُ أرى الاثني عشر حافراً للجياد النافقة، وهي تنتصب باتّجاه السماء، فتذكّرني بأعمدة مَدفن كنيسة القدّيس بولسلاف. وتذكّرتُ ماشا، في لقائنا الأوّل، يومذاك كنتُ لا أزال مُستخدَماً في الصيانة، فأعطانا رئيس الورشة دلوَيْن من الطلاء الأحمر، وطلب منّا أن نطلي السياج الذي يحيط بالمشاغل. كانت ماشا لا تزال مبتدئة في السّكّة الحديد، مثلي تماماً، وكنّا وجهاً لوجه، يفصل بيننا هذا السياج العالي من الشريط الشائك، لكلّ منّا دلوه الخاصّ المليء بأكسيد الرصاص الأحمر، والفرشاة في اليد، كنّا ننظر بثبات أمامنا مُنشغلَيْن بِطَلي السياج، كلّ من جهته، ودائماً متقابلَيْن وجهاً لوجه، وكان طول السياج خمسة كيلومترات، فأمضينا الوقت يوماً بيوم، وجهاً لوجه، طوال خمسة أشهر، وتصارحنا بكل شيء، ماشا وأنا، ولكن السياج كان دائماً بيننا. ذات يوم، وكنّا قد أنجزنا طلاء كيلومترَيْن منه، طليتُ السلك الشائك، بالطلاء الأحمر، بموازاة شَفَتَي ماشا، وقلتُ لها إنني أحبّها، وهي، من جهتها، كانت تطلي السلك نفسه وقالت لي إنها تحبّني هي أيضاً ... وكانت تنظر في عينَيّ، ولمّا كنّا حينذاك في حفرة، ونباتُ السرمق عالٍ، قرَّبتُ فمي، وتبادلنا القبل، من جهتي الشريط الشائك المَطْلي، وعندما فتحنا أعيننا، كان فمها مُلطّخاً بالأحمر، كذلك فمي، فانفجرنا ضاحكَيْن، وبتنا سعيدَيْن منذ ذلك الحين.

جلستُ على بطن أحد الجياد النافقة الثلاثة، وأسندتُ رأسي إلى عُرقوبه. كان رأس الجواد الثاني يرمقني بعين جاحظة حتّى خُيّل إليّ أن هذا الجواد الميت عايش ما عشتُه منذ قليل.

إذنْ، في ذلك النهار، ارتقيتُ بعناء سلّم الفندق الصغير في

بستريس بنسوف، وكان أحد البنّائين يعمل عند إحدى عقفات السّلّم، وهو يرتدي بنطالاً وسترة أبيضَيْن، يثقب الحائط، ليُثبت فيه دسارين لتعليق أنبوب إطفاء حريق من نوع مينيماكس. كان رجلاً متقدّماً في السّنّ، ذلك البناء، ولكنه عريض البنية قويّها حتّى إنه استدار ليفسح لي ممرّاً، وكان يصفّر لحن فالس "كونت دو لوكسمبورغ". دخلتُ إلى إحدى الغرف، كان الوقت صباحاً، وأخرجتُ شفرَتَيَ حلاقة، غرزتُ الأولى على منضدة الحمّام، ووضعتُ الثانية جانباً، وشرعتُ أدندن لحن الفالس "كونت دولوكسمبورغ". خلعتُ ملابسي، وفتحتُ حنفية المياه الساخنة، ثمّ أطرقتُ مفكّراً، وفتحتُ الباب على مهل. كان البنّاء يقف من الجهة الثانية للباب، في الرواق، كما لو أنه، هو أيضاً، فتح هذا الباب، لكي يُتاح له أن ينظر إليّ، ويرى ماذا أفعل، كما أردتُ أن أنظر إليه، أنا أيضاً. صفقتُ الباب، وانزلقتُ عارياً في المغطس، وكان عليّ أن أجلس على مهل، لأن المياه كانت لاهبة، أطلقتُ غمغمة ألم، فيما أجلس بحذر متألماً. بعد ذلك، مَدَدْتُ معصمي، وقطعتُ شريان المعصم الأيسر باليد اليمنى، ثمّ ضربتُ معصم اليد اليمنى، بكل قوّتي، على حدّ الشفرة المغروزة في المنضدة، وغطستُ يَدَيّ الاثنَتَيْن في المياه الساخنة، كنتُ أرى الدماء تسيل ببطء من جسمي، والمياه تتحوّل إلى لون زهري، وكان الدم الأحمر يواصل نزفه متميّزاً عن الماء، كما لو أن شريطاً مطّاطياً أحمر، شحب من معصمي، أو كأنه سيل غازيّ متماوج ... ثمّ أحسستُ أنني أتجمّد في المغطس، كما تجمّد الطلاء الذي طلينا به سياج الشريط الشائك الذي يزنّر مشاغل سكك حديد الدولة ... وهوى رأسي على صدري، وأحسستُ بطعم صودا الفراولة تسيل في فمي، ولكنها مالحة الطعم قليلاً ... وتلك الدوائر المتراكزة الزرقاء

والبنفسجية التي تماوج مثل لوالب متحرّكة وملوّنة ... ثمّ انحنى ظلّ عليّ، وأحسستُ على وجهي بمَلْمَس ذقن غير حليقة خشنة الوبر. لقد كان البنّاء بثياب العمل البيضاء. مرَّر ذراعَيْه تحت جسمي، وحملني كسمكة حمراء بزعنفَتَيْن حمراوَيْن، تنبثقان من معصمي. أسندتُ رأسي إلى إزاره، وسمعتُ وجهي المبلّل يُطفئ الكلس، وكان هذا العطر آخر ما أذكره قبل أن أفقد وعيّ.

كنتُ جالساً على الجواد الميت، متّكئاً على إحدى قوائمه المنتصبة نحو السماء، وفي استطاعتي أن ألمس حلقة الوبر الخفيف الذي يزنّر أعلى حوافر الجياد ... كان قطار بضائع يعبر على السّكّة، ويصفّر باغتباط. وظلال العربات تغطّيني، ثمّ تنحسر عنّي بانتظام، وكان اللعاب يتدفّق في فمي، بدأت الحكاية عند نونمان العجوز في كارلين، في تلك الليلة التي قضيتُها في منزل عمّ ماشا، أفردوا لي كنبة في المحترِف، وأعطوني غطاء خفيفاً، بالإضافة إلى غطاء سرير سميك، كُتب عليه بأحرف ضخمة "براغ"، وفوق الكتابة رسم لطائرة صغيرة، حيث يأتي الزبائن، ويلتقطون صوراً لأنفسهم في زيّ طيّار أو سائح، مجموعات صغيرة وطريفة تبرز في الصورة مجتمعة، وكأنها تتّكئ على أطراف هذه الطائرة، وحين حلّ الظلام، وأصبح كل شيء ساكناً في منزل آل نونمان، لحقتْ بي ماشا، وانسلّتْ لصقي تحت الغطاء الذي رسمت عليه الطائرة، وراحتْ تداعبني، كانت ملتصقة بي، وكنت أنا أيضاً، أداعبها، وأشعر أنني أصبحتُ رجلاً، وكنت رجلاً بالفعل حتّى اللحظة الأخيرة، ولكنْ، في اللحظة الأخيرة، ذبلتُ فجأة، مثل زنبقة(*)، وانتهى كل شيء. كانت ماشا

(*) تعبير شعبي تشيكي، يُستخدَم للعبارة عن لحظة عجز جنسيّ عابرة.

تحاول أن تقرصني، وكنتُ جامداً مثل حجر مشلولاً من أطرافي كلها ... بعد مضي ساعة واحدة، رفعتْ ماشا الغطاء، وهربت عائدةً إلى غرفة عمّتها ... في صباح اليوم التالي، لم أقوَ حتّى على النظر في اتّجاهها، كنتُ كَمَنْ سُمِّرَ على كرسيه، فيما الزبائن يدخلون ويقفون خلف غطاء السرير الذي شهد، وأنا تحته، في الليل، إحدى أسوأ تجارب حياتي، يقف الزائرون أحدهم على كرسي، والآخر على مرقاة، ويضع العمّ نونمان في يد أحدهم قنّينة، وفي يد الآخر قمعاً، ثمّ يغطّي رأسه بقماشة سوداء أمام آلته، ويرفع ذراعه، ويشير بيده، ثمّ يخرج من تحت القماشة السوداء، ويحضر الصورة للزبون بعد انتظار خمس دقائق، لأن الكتابة فوق باب المدخل جازمة: خمس دقائق من الانتظار فقط. توافد الزبائن طوال النهار، ثمّ دخل جنديّان ألمانيان، فصعد أحدهما، ووقف على الكرسيّ، فيما وقف الآخر على المرقاة، وفرد السّيّد نونمان أمامها الغطاء الذي رسمت عليه الطائرة، وكتبت كلمة "براغ"، ولكن صوتاً هائلاً دوّى، واجتاح المحترف مجرى هواء عنيف، فتطاير الغطاء والطائرة، ووقع الجنديّان أرضاً، وكذلك وقع العمّ الذي كان رأسه لا يزال مغطّى بالقماشة السوداء، ولكن الأسوأ حدث فيما بعد، حين هبّ عصف هواء فظيع، فرأيتُ جدار المحترف يتهدّم، ورأيتُ الجنديَّيْن والعمّ يدفعهم العصف الذي رمى بالعمّة وبماشا إلى خارج الغرفة، كانتا تطيران، كما يطير أيّ شيء بالفعل، وهما تحاولان عبثاً الإمساك بأطراف تنّورَتَيْهما المتطايرَتَيْن، وكان شعرهما ينتصب، ويتطاير مع الهواء، فيحجب عنّي السماء، ووقعنا جميعنا على أقفيتنا، وتدحرجنا على عشب الجنينة، على مهلٍ، كبالونات ... واقتلع العصف اليافطة التي كُتب عليها: خمس دقائق من الانتظار فقط ... عبر بعض الناس الشارعَ الرئيسَ،

ثمّ خيّم السكون، وبعد ذلك، سُمع زعيق صفّارات الإنذار، وعبرت سيّارات الإسعاف الشارعَ مسرعة، ثمّ وصل رجال ونساء، وقد باتت أثوابهم خرقاً، وكانوا يضحكون، مشعّثين مسودّي الوجوه، يضحكون مثل أبالسة، ولا يتوقّفون عن الضحك، ثمّ يتهالكون على أقفيتهم على عشب الجنينة، ويمكثون مُستلقين على ظهورهم وأجسادهم تتلوّى من شدّة الضحك ... ثمّ اقترب شخص، واستدار، وأشار بيده نحو فيسوكاني، وقال: غارة رهيبة، يا أصدقاء! ثمّ التفت صوب الجنينة، ورأى اليافطة الكبيرة، وردّد بصوت عالٍ ما كُتب عليها، ولكنه كان يعطي للكلمات معنى مختلفاً بعض الشيء: خمس دقائق من الانتظار فقط ...

لمتابعتنا على تيليجرام اضغط هنا

لمتابعتنا على فيسبوك اضغط هنا

تسلَّلتُ من تحت الحاجز الحديدي. كانت عربات واقفة على سكّة الخطّ الخامس. وكان القطار كله منخوراً بالرصاص، قرأتُ الكتابة على العربة الأولى: الوجهة، مشاغل سكك حديد الدولة، محطّة الانطلاق: كركوفيا. كانت الأمور دائماً تجري على هذا المنوال: فالأنصار يُعمِّدون بالنار القطارات العسكرية الألمانية العابرة خلف خطوط الجبهات، فلا يسلم منها زجاج نافذة واحد في العربات كلها، كانت كلها منخورة بالرصاص، ورسالة الرشّاشات محفورة على الأطر المعدنية، بعضها قُطِّع بالقنابل اليدوية، وبعضها الآخر بالمدفع الصغير المحمول، أو بقذائف البازوكا التي يستولون عليها من الألمان أنفسهم. كانت العربات أصبحت غير صالحة للاستخدام منذ وقت طويل، لكل عربة منها بابان، باب لكل جهة من جهات المقصورة، ومرقاة على طول الحافّة السفلية للعربة. وعلى كل باب تقريباً بقعة دماء جافّة. ألقيتُ نظرة داخل إحدى المقصورات، ورأيت المشهد الذي يتكرّر فيها كلها: نثار الزجاج المحطَّم يُغطّي الأرض؛ مسامير، أزرار منزوعة مع أطراف قماش، كُمّ برّة عسكرية كامل، سراويل مضرّجة بالدماء، منديل لا بدّ أنه استُخدم لمسح الدماء، قطع شطرنج مبعثرة، علبة لألعاب مُلغزة، مرآة مستديرة، أكورديون صغير، رسائل مغطّاة بحبيبات الثلج، شريط طويل وكرة مخطّطة. التقطتُ رسالة ممهورة

بمسامير حذاء عسكريّ. تبدأ الرسالة بـ "حبيبي شنوكي بوكي! وتنتهي بـ"فتاتك لويز". وبصمة شَفَتَي امرأة. وفي إحدى الزوايا، لمحتُ مَداساً عسكرياً محلول الرّباط ومشدود اللُّسَين يحدِّقُ بي، وبجانبه غرابان نافقان جاثمان على الأرض. يوم عدتُ من المستشفى كانت موجة جليد شديدة تجتاح البلاد، حتّى إن أشجار الغابة التي تقع خلف بلدتنا، وتكثر فيها أسراب الزاغ والغربان، كانت مغطّاة بالطيور السوداء المتدلّية من الأغصان، كانت الطيور تتلألأ تحت أشعّة شمس الصباح الجليدية، وعند وصولي إلى الغابة، رأيتُ آلاف الغربان المطروحة على الأرض، ولم أرَ جذع شجرة واحداً، لا تحيط به جثث الغربان، كانت تُشبه الخوخ السلقي لبوزني: غابة مليئة بالطيور الميتة، والغربان الجاثمة على الأغصان كانت ميتة أيضاً، إذ تجمّدت في أثناء نومها. ضربتُ بقَدَمي أحد الجذوع، فتساقطتْ مسلات الجليد والطيور الميتة عن الأفنان والأغصان، وبعضها سقط على كتفي إلا أنها كانت خفيفة جداً، كما لو أن أحداً رمى "بيريه"(*) على كتفي.

قفزتُ عن مرقاة العربة الأخيرة للقطار المركون على سكّة الخطّ الخامس، وذهبتُ لأرى ماذا يجري في مكتب المحطّة. كان السّيّد هوبيكا جالساً، وقد رفع قَدَمَيْه، ووضعهما على مكتب التلغراف، وضمّ ساعدَيْه إلى صدره، ودسّ كَفَّيْه تحت الإبطَيْن، ذقنه يلامس صدره، وكان السّيّد هوبيكا نائماً. في استطاعتي أن أفعل ذلك أنا أيضاً، فأنا أيضاً يحدث لي أن أغفو في أثناء الخدمة. فجأة تنتابك رغبة في أن تستسلم لكبوة، رغبة ملحاحة، بحيث ترى أنه من الأفضل أن تغتنم أوّل فرصة لتفعل ذلك. ولكن الكبوة، كبوة مستخدمي السّكّة

*) بيريه: طاقيّة صوف مُدوَّرة ومُسطّحة، لونها أسود.

الحديد في أثناء الخدمة، لها نظام إشاراتها الخاصّ، يكون الجسد مستغرقاً تماماً، ولكن شيئاً ما، في الرأس، يظلّ مُتيقّظاً. إذ يكفي أن ترنّ شارة التلغراف حتّى يتنبّه مستخدم السّكّة الحديد الحقيقي فوراً، فيخفض عتلة الجهاز، ويعطي إشارة محطّته، ثمّ يعود إلى جلسته، ويغرق من جديد في نوم عميق، وحين ينتهي تسجيل الرسالة البرقية على شريط اللاقط الأبيض، ينهض مُستخدم السّكّة الحديد، ويعلن أنه فهم ويبثّ إشارة محطّته، وهو يدير مفتاح التلغراف، ويُطفئ الآلة، ثمّ يجلس، ويستأنف كبوته، أو أن مُستخدم السّكّة الحديد يضع مُلوِّحة الوصول في مكانها، ثمّ ينام، ولكنه يسمع خطوات تقترب، فالقطار دخل المحطّة، وخفّف من سرعته، ثمّ دخل إلى خطٍّ معزول، وعند تجمّع التّوقّف أحدث تكّة تكاد تكون غير مسموعة، كما لو أن ملعقة تسقط في فنجان قهوة، ولكن مستخدم السّكّة الحديد يستيقظ، ويذهب ليفتح الخطّ من جديد.

كانت خطوات رئيس المحطّة تُسمَع وهو يهبط السّلّم، فأنزل السّيّد هوبيكا نعلَيْه عن الطاولة، ونهض. دخل الرئيس مرتدياً برّته القديمة، كان، بالتأكيد، في طريقه إلى برج الحمام لتنظيفه، بنطاله أبيض لكثرة ما غطّاه روث الحمام، وكذلك الكمان.

دخلتُ بدوري إلى مكتب المحطّة.

- المتمرّن هرما ميلوش جاهز للخدمة! قلتُ.

فلم يلبثا أن هُرعا، ليشدّا على يَدَيّ، وربَّتا على ظهري، ورئيس المحطّة يقول معاتباً:

- ماذا قلتُ لكَ، يا ميلوش؟ ألم أقلْ لكَ أن تلزم الحذر. وأكرِّر لكَ، قال وهو يستدير مشيراً إلى البلاغ المعلَّق، وإصبعه تدلّ على التوقيع. لقد أعلن مفوّض الرايخ، دانكو بنفسه، في هراديك أنه لن يتردّد، ولو الثانية واحدة، وأنه سيُنفّذ حكم الإعدام بعدد من مستخدمي السّكّة الحديد التشيكيّين!

هزّ برأسه، وإذا بحمامة كانت تتخطّر على رصيف المحطّة، تُطلق هديلها، فطار سرب من الوشقات نحو باب المكتب.

كان قطار بضائع يدخلِ إلى المحطّة. فخرج رئيس المحطّة، وطارت الحمامات، وحطّتْ على كتفَيْه، وعلى رأسه، ومَدَّ ذراعَيْه، فحطّت الوشقات عليه، كما لو أنه تمثال في ساحة عامّة. وكان الرئيس يشعر بالاعتزاز، لأن رئيس القطار وأفراد طاقمه ينظرون إليه، وكذلك السائق الذي كان يمسح يَدَيْه بخرقة صوف سميكة، فأوقف تنظيف نفسه، ونظر بدوره إلى رئيس المحطّة، ، فيما هذا الأخير يمشي على الرصيف حاملاً هذه الجوقة التي تصفّق بأجنحتها، لكي لا تفقد توازنها.

- لقد زوّدونا بفَحْم رديء، قال السائق، إنها المرّة الثانية التي نتوقّف فيها قَسْراً لتخزين البخار.

- إذنْ، أما تزال ترسم، يا سيّد كينز؟ سأله هوبيكا.

- كالعادة، قال السائق مؤكّداً. وفي هذا الوقت بالذات، أحاول أن أرسم البحر. عجباً، لعلّ في استطاعة رئيس محطّتكَ أن يُقدِّم نمرة في السيرك، هو وحماماته.

- يا له من سيرك عجيب! قال هوبيكا. إذنْ، أنت ترسم البحر في الوقت الحاضر؟ أما أنا، فكنتُ واقفاً على الرصيف، أراقب رئيس القطار وأفراد طاقمه والسائق، ولم ألبث أن أدركتُ أنهم إنما توقّفوا هنا للقاء السّيّد هوبيكا، ليروا إذا كان صحيحاً أم لا، لمجرّد النَّظر إلى وجهه، ما رُوي عنه بأنه شمّر تنّورة عاملة التلغراف في أثناء وردية الليل، ووسم مؤخّرتها بختم المحطّة.

البحر، قال السائق - فيما يواصل تحديقه بالسّيّد هوبيكا بعينَيْن تشعّان إعجاباً - أحاول تكبير صورة البحر نقلاً عن بطاقة بريدية.

ألا تفضّل أن ترسم مباشرة نقلاً عن الطبيعة؟ سأله هوبيكا.

- لا تكلّمني على الطبيعة! فهي لا تتوقّف عن الحركة، صرخ السائق، وضحك واستدار نحو مقطورة الصيانة، وغمز بعينَيْه، فانفجر الجميع ضاحكين. لو أردتُ أن أرسم نقلاً عن الطبيعة، لاضطررتُ لأن أرسم كل شيء مُصغّراً. لقد انهمكتُ بها مرّة، هذه الطبيعة، واكتفيتُ! استلفتُ ثعلباً مُصبَّراً من المدرسة، ووضعتُه في الغابة بين الأغصان والأوراق، وما إن شرعتُ برَسْمه، جاء كلبان، ومزّقاه إرباً، ذاك الثعلب المسكين. ثلاثمائة كورون. وتقول لي طبيعة!!

ولكن السّيّد هوبيكا كان يتأمّل الأشياء الزرقاء، وأنا أيضاً بتُّ أرى في هذه السماء المشهد إيّاه، أرى زدنيكا، عاملة التلغراف تستلقي على الأفق، والسّيّد هوبيكا يشمّر تنّورتها برفق، ثمّ يتناول الأختام، واحداً تلو الآخر، ويطبعها بحركات مسرحية على مؤخّرة عاملة التلغراف ... وأرى عيونهم شاخصة إلى السماء، ركّاب القطار وأفراد

طاقم القاطرة، وأنهم جميعهم يرون المشهد نفسه، هذا الحَدَثُ الظريف الذي جعلهم يتوقّفون لأجله، بحجّة تخزين البخار.

وحين ملّوا أنظارهم لشدّة ما تأمّلوا السماء الزرقاء، نظروا بإعجاب إلى السّيّد هوبيكا الذي بدا فجأة أكثر جمالاً، وأكثر وسامة. كانت التجاعيد عند زاوية فمه، وساقاه المقوّستان قليلاً أكثر تناسقاً وانسجاماً مع جسمه. وأدركتُ أنه يمتلك سِحْراً أكيداً في عيون النساء.

- أتعلمُ كيف أرسم البحر نقلاً عن بطاقة بريدية؟ سأله السائق. أضع اللوحة التي أرسم عليها بين فكَّي مَلْزَمَة، وعليها أُثبت البطاقة البريدية بواسطة مسمار صغير، وأرسم. ولكنّ يَدَي لا تُطاوعني، ولا أنجح في رَسْم خطوط التماوج، حركة الأمواج كما هي في البطاقة البريدية.

- ولكنْ، يا سيّد كينز، قال السّيّد هوبيكا، ما عليكَ سوى أن تُثبّت البطاقة البريدية بين فكَّي المَلزمة، وإلى جانبها اللوحة، ثمّ تُحرِّك الريشة بهذه الطريقة على أمواج البطاقة البريدية، وعندما تلتقط يدكَ الحركة المناسبة، وسِّع الحركة، لترسم أمواجاً أكبر، وحين تصبح الأمواج بالحجم الذي تريده، ابدأ بالرَّسْم مباشرة على اللوحة.

- يا لها من أفكار تراودكَ أنت! قال السائق بدهشة.

هُرعتُ إلى مكتب المحطّة، كان الهاتف يرنّ، وسمعتُ رئيس المحطّة يوبّخ وشقاته، ولكنه يتصنّع الغضب، الحمامات كلها كانت معه في البرج، ووددتُ لو أختبئ داخل البرج، لأرى من خلال فتحة خفية ماذا يفعل رئيس المحطّة مع هذه الحمامات. كان يخيّل إليّ

أن الحمامات تضحك هي أيضاً، وأن رئيس المحطّة يعظها، وأنه لن يلبث أن يُمسك بإحداها، ويصفعها على قفاها، لأنها غير مطيعة ... كانت سمّاعة الباكليت على أذني، وأنظاري شاخصة باتّجاه الرصيف، حيث يقف رجال يتنعّمون بدفء الشمس، ثمّ رأيتُ السائق ينحني على أذن السّيّد هوبيكا، ويُسرُّ له بأمر ما، وحين انحنيتُ لأرى جانب العربات المخصّصة لنقل الفحم، ارتعدتْ أوصالي. إذ رأيتُ قرني بقرة ينبثقان من إحدى العربات، وعدّة رؤوس تنتصب شاخصة العيون باتّجاه الرصيف، عيون أبقار واسعة، ومليئة بالفضول والأسى. وكانت أرضيات معظم العربات مثقوبة لشدّة ما ركلتْها الحوافر، ومن أحد الثقوب تدلّت قائمة مجروحة، ثابتة وداكنة الزرقة ... ما أحببتُ أن أرى هذا، إذ كان أمراً لا أطيق احتماله، فحين كانوا ينقلون العجول المتضوّرة، ويتوقف القطار في محطّتنا، كنتُ أمدّ أصابعي من خلال باب العربة المفتوح، فهذا أقلّ ما يمكن أن أفعله لأُوهم العجول، ولو للحظات قليلة، بأنها ترى ضرعاً، إلا أني ما كنتُ أحبّ ذلك! كما أني لا أحبّ منظر الجداء حين يسوقها الجزّارون وقوائمها مقيّدة بحبال رفيعة، وقد خُرّمت بقوّة، بحيث تمنع دورة الدماء عن أوصالها، أشياء لا أطيق احتمالها، والأكثر بشاعة حين ينقلون، أوقات الصقيع في عربات مكشوفة ذات أدوار، الخنازير الصغيرة إلى مسالخ براغ، الخنازير برؤوسها الصغيرة الملتصقة ببعضها البعض، تخاف أن تتحرّك، لأن أدنى حركة تجعلها تفقد المزيد من الدفء، خنازير صغيرة مجمّدة القوائم خزفية الحوافر! آه كم كنتُ أكره أن أرى ذلك! أو حتّى في الصيف، حين تنقل، في القيظ الخانق، بلا ماء، من هنغاريا، قافلة كاملة من الخنازير المرخية الأشداق، يُكبّلها العطش، كما لو أنها عصافير تموت ظمأً.

خرجتُ من مكتب المحطّة.

- من أين تأتي هذه الحمولة؟ سألتُ رئيس القطار.

- من الجبهة. هذه بهائم استغرقتْ رحلتها عشرة أيّام حتّى الآن، قال ذلك وأشار بيده كَمَنْ يُسلِّم بأمر، لا مفرّ منه. صعدتُ إلى حافة إحدى العربات، ونظرتُ إلى الأسفل. البهائم كلها كانت مرغية ماخطة، وبعضها نفق، ومن كفل إحدى البقرات تدلّى عجل ميت، بدأ العفن يتآكله ... ورأيتُ، فيما أنظر، أزواجاً من العيون المرعبة المعاتبة بصمت، أزواجاً من العيون المعذّبة التي لم أملك إزاءها إلا أن ألوي بيدي يأساً وقنوطاً. قطار كامل من العيون المعاتبة، من عيون البهائم.

صرختُ: الألمان أوغاد!

- أوغاد، هذا أقلّ ما يُقال!! أجاب رئيس القطار. العربات الثلاث الأخيرة مليئة بخرافٍ نصف حية ... كانت جائعة لدرجة أنها راحت تأكل جرّاتها!

- أصبح لدينا بخار، قال السائق، وأضاف بصوت خفيض: هل سمعتُم النبأ؟ لقد فجّر الأنصار في الليلة الماضية أحد قطارات الحراسة المشدّدة في منطقة بيهلافا، وكانت الإصابة من الدقّة، بحيث انقلب القطار بأكمله في الوادي، أما العبوة الثانية، وكانت مخصّصة لهذا القطار، فقد استُخدمت لتفجير الجسر.

صعد إلى القاطرة، وضغط على العتلة، وأخذ قطار البضائع

يتحرّك، تتبعه العربات التي تحمل قوائم البهائم ونظراتها، والأرضيات المثقوبة التي تتدلّى منها القوائم المجرَّحة والمسودّة بفعل التّخثّر. وخلف إهراء القمح، الليفربول، هناك قرب المنحدر، كانت عربتان تنتظران، عربتان، كان قطار الصباح السريع خلّفهما وراءه، بانتظار أن تبدأ الرحلة إلى مسالخ براغ.

ثمّ عبر قطاران عسكريان تحت الحراسة الخاصّة، لم أرَ فيهما سوى عربات مصفّحة ودبّابات "تايغر"، وفي القاطرة يقف ضابط، فلا بد أن يكون هذا التدبير بسبب الأداء الجميل للأنصار في ييهلافا. كان تجّار البهائم يسوقون أبقاراً من البلدة، وكانت الأبقار المبقّعة الجلود تعاندهم. ربضتْ إحدى البقرات، من يأسها، على الطريق، فوضع الرعاة غمر قشّ تحت ذيلها، وأشعلوه؛ ثمّ بدتْ عربة من جهة البيوت، كانت الجياد التي تجرّها مشدودة العنان، لأن العربة تجرّ ثوراً، وكان الثور مكسور الركبَتَيْن، وقد تمزّق خطمه بعد انتزاع الحلقة المعلّقة في منخَرَيْه. كان مربوطاً إلى العربة من قرنَيْه والعربة تجرّه، إذ لم يدرك الثور إلا بعد فوات الأوان أن ابنة المزارع خدعتْه، وأنها تدبّرت أمر تسليمه للجزّارين، فاستغلّت رائحة تنّورتها التي اعتاد عليها، والتي قد يتبعها إلى آخر الدنيا. وها هوذا الآن، تقطره عربة الخيل على الطريق المغطّى بالثلج المائع، حيث تخطّ ركبتاه الداميتان خطَّيْن أسوَدَيْن.

- ميلوش! قال السّيّد هوبيكا، إذ جعلني ألتفتُ إليه بحركة من يده، وأمسكني بذقني. باتتْ المسألة بيننا الآن مسألة حياة أو موت. لقد جعلوكَ تدفع ثمن ما فعلتُه أنا.

ثمّ رنَّ هاتف مجموعة التوجيه.

قلتُ: "الألمان أوغاد"! ورفعتُ سمّاعة الهاتف، وارتعدتُ.

- يا سيّد هوبيكا، لقد وقعتْ ذراع الملوِّحة!

سألني: "لمَنْ فتحنا الخطّ"؟

- للقطار السريع.

- إنه أمر سيّئ.

- يا سيّد هوبيكا، قلتُ سأذهب على درّاجتي، وأحرّر ذراع الملوِّحة.

هرعتُ إلى دراجتي، وسلكتُ الدرب الضّيّق بمحاذاة الليفربول حتّى عمود الملوِّحة، وتسلّقتُ العارضَتَيْن المتوازيَتَيْن، وجلستُ مفرشخاً فوق اللمبة، ورفعت ذراع الملوِّحة. كانت القاطرة تقترب وهي تقطر هذا القطار السريع الذي ينقل الأطعمة والمشروبات الروحية والرسائل للضّبّاط، قطار سريع يعبر المحطّات دون أن يخفّف من سرعته، ولا تنازعه أولوية المرور إلا القطارات تحت الحراسة المشدّدة. أراد السائق أن يفرمل حين رآني على الملوِّحة، ولكني تناولتُ مصباح الجيب، وأضأتُ الشارة الخضراء مشيراً إلى أن الخطّ طليق. فلم يلبث السائق أن ضاعف سرعته، وعبر هذا القطار السريع المؤلّف من مقطورات بضائع بسرعة سَهْم، عبق الدخان أمامي، ومرّتْ بضع ثوان قبل أن أميز السّيّد هوبيكا على الرصيف وهو يراقب

عبور المقطورات، كانت القاطرة تذري الثلج، وتجرّه وراءها، وخلف المقطورة الأخيرة، كنتُ أرى عاصفة ثلج مزيّنة بقصاصات الورق والأغصان اليابسة الصغيرة ...

ثمّ حلّ وقت استراحة الظهر، فسخّنتُ حسائي على نار المدفأة في قصعة زرقاء، ووضعتُ ملوِّحة الدخول في وَضْعها الملائم لعبور عربة نقل المستخدمين، ومدَّ السّيّد هوبيكا ساقَيْه على طاولة التلغراف، ونظر إلى السماء الزرقاء من خلال النافذة.

- هل تعلم مَنْ يستقلّ العربة؟ ألم يخبروكَ؟ سألني.

- قالوا إنه رئيس الخطّ، أجبتُه وأنا أحرِّك ملعقة في القصعة الزرقاء. فُتح الباب بهدوء، ودخل أحدهم، ورأيتُ بنطالاً رمادياً وحذاءَيْن ملمّعَيْن بعناية ومعطفاً.

- يبدو أننا نمضي وقتاً طيّباً هنا، قال الوافد الجديد.

- حقّاً، أليس كذلك؟ قلتُ، وواصلتُ تناول حسائي، وكانت قَدَمَا السّيّد هوبيكا لا تزالان على طاولة التلغراف، فيما كان هو لا يزال يمعن النَّظَر في السماء.

- أتعلمون مَنْ أكون؟ أردف الوافد الجديد.

فقلتُ: "أجل، لقد جئتَ للحصول على إيصال الاستلام، أنتَ هنا من أجل البهائم".

- ربّما، قال الوافد الجديد. أين رئيس المحطّة؟

- في برج الحمام، قلتُ.

استشاط الوافد الجديد، وأحدث جلبة، لا يُستهان بها.

- إنه هنا، ذلك البشري! إذنْ، أتعلمون مَنْ أكون؟ سألْنَا من جديد. أنا رئيس المقاطعة سلوسني!

هذه المرّة عرفتُ مَنْ يكون. كنتُ أسمع رؤساء المحطّات ومساعدتهم والمفتّشين الذين ترتعد أوصالهم لمجرّد ذِكْر اسم رئيس مقاطعة سلوسني. فانتصبتُ واقفاً، وحيّيتُ بيد، فيما القصعة والملعقة في اليد الأخرى، وعرّفتُ عن نفسي:

- المستخدم المُتمرّن ميلوش هرما في الخدمة.

- دعْ هذه القصعة! صرخ رئيس المقاطعة، وضرب القصعة الزرقاء بقبضته، فسقطتْ على الأرض، ورَكَلَهَا رئيس المقاطعة بقَدَمَه، فتدحرجت القصعة، واستقرّتْ تحت الخزانة وهي تُحدث جلبة خردة. كنتُ واقفاً أؤدّي التحية، ولكن السّيّد هوبيكا كان لا يزال جالساً على كرسيّه وقَدَمَاه تستريحان على طاولة التلغراف، كما لو أنه أُصيب بالشَّلَل خوفاً من رئيس المقاطعة. مرّ رئيس المحطّة أمام النافذة، ودخل إلى المكتب. كان على حاله، إذ يعود من برج الحمام، حاسر الرأس، وها هو يؤدّي التحية، ويعلن عن اسم محطّته.

- استرحْ، قال رئيس المقاطعة بلطف، ثمّ تفحّص بإمعان سترة

رئيس المحطّة النظامية القديمة، وقد غطّاها روث الحمام، تريّثتْ نظراته بتلذّذ عند الزرّ الوحيد المتبقّي، ودار حول رئيس المحطّة متأمّلاً بنطاله المتّسخ.

- كنتُ أفكّر ... قال رئيس المحطّة.

- هذا لأنه يفكّر هو أيضاً؟ سألني رئيس المقاطعة بهدوء.

- أجل، قلتُ.

- أجل؟ قال رئيس المقاطعة بدهشة. وهل تعلم أنني اقترحتُ بأن يُرقّى هذا المساعد الأوّل إلى رتبة مفتّش؟

أرخيتُ كتفي مرتبكاً.

- إذنْ، كنتَ تريد أن تصبح مفتّشاً؟ سأله الرئيس فيما كانت ريشة تتطاير فوق رأس رئيس المحطّة.

- أجل، قال رئيس المحطّة متنهّداً، فيما طارت الريشة إلى أعلى، وراحتْ ترتفع وتهبط فوق جبينه.

- ألا ترغب في أن تذهب لتربية الإوز؟

- لا، تنهّد رئيس المحطّة، وانتصبت الريشة فوق جبينه مثل علامة استفهام بيضاء.

- سنبحث في الأمر فور عودتنا إلى هراديك. بأيّة حال، لجهة كونها

محطّة طريفة، فهي محطّة طريفة، صرخ رئيس المقاطعة، وبحركة واحدة من يده كنس جزمة المعاون عن الطاولة. هل تعلم مَنْ هم الذين وصلوا في العربة؟ إنها اللجنة التي جاءت لتحقّق ميدانياً، ثمّ تحدّد ما إذا كان سلوك هذا السّيّد يستدعي ملاحقة قضائية، بتهمة ارتكاب عمل فاضح أم تكتفي بإجراء تأديبيّ، وأشار إلى السّيّد هوبيكا.

فتح رئيس المحطّة باب مكتبه، فبانت السجّادة الفارسية المزركشة بالورود الحمراء والزرقاء، وكذلك مكتب الأكاجو، والنخلة ذات السعفات المنفرجة كمظلّة والمناضد التركية، ولكن رئيس المقاطعة هزّ برأسه بلا اكتراث.

- حانوتي مثل هذا يليق به مثل هذا الحانوت، قال الرئيس.

ثمّ دخل المستشار زدنيتشيك حاملاً محفظة مَحشوَّة بالملفّات، وفرد بعض الصور على طاولة التلغراف، صور الأختام كلها التي غطّت مؤخّرة زدنيكا لانج، عاملة التلغراف. كان رئيس المحطّة يواصل إلحاحه على أن يسمح له بالذهاب لاستبدال ثيابه، ويردّد أنه يملك بزّة جميلة، ولكن رئيس المقاطعة سلوسني لم يكن يبالي بكل توسّلاته، إذ يتوجب على رئيس المحطّة تدوين محضر جلسة الاستجواب. ثمّ دخلتْ زدنيكا بدورها، حتّى إني ما عرفتُها، كما لو أن طبعات هذه الأختام والفضيحة التي تلتْها جعلت منها شخصاً آخر، فقد أصبحت جميلة، ولعينيها غور أعمق، أحسستُ بدوار حين مدَّتْ يدها، لتصافحني، ونظرتْ في عينَيّ مبتسمة، وحين قالت إنها، من دون شكّ، ستعمل في السينما، وإن المخرجين يُبدون اهتمامهم بها في الوقت الحاضر، بدأ المستشار زدنيتشيك ببسط خارطة أوروبا، ليلخّص ويشرح، استهلالاً، الوَضْع العسكري لجيوش الرايخ. بسط

الخريطة، وأوّل ما رأيناه عدداً من الثقوب فيها. ذلك أن المستشار زدينتشيك كان يحمل هذه الخارطة في جيبه باستمرار، فتمزّقت من زواياها لفرط ما كان يطويها، ويبسطها. وكان كل واحد من هذه الثقوب بحجم سويسرا على الخارطة. والسّيّد زدينتشيك يشرح وَضْع الجيوش في منطقة الكاربات، حيث يقاتل الجيش الخامس بقيادة فون مانسفيلد، وهو الجيش الذي يقاتل ابنه في صفوفه أيضاً، برتيسلاف زدنيتشيك، ولكنْ، على الخارطة، كان الجيش الخامس لا يزال في الثقب، عند الثنية، ومضتْ ثمانية. أيّام وهو لا يزال في مكانه، ولم ينجح في الخروج من هذا الجيب، حيث يقاتل زدنيتشيك الابن الذي لا يجيد الألمانية أكثر ممّا يجيدها والده، والذي جعل نفسه جرمانياً بشَطْب كل مخارج الحروف الحادّة من اسمه، وكل إشارات المَدّ المقلوبة. وكان المستشار زدنيتشيك يواصل استعراضه للوَضْع، ويخطّ بقلمه على الخارطة الصغيرة دوائر، هي، في الحقيقة، بحجم البحر الأسود، وكانت هذه الدوائر تُشير إلى تحرّكات عملية الكمّاشة التي تنفّذها جيوش الرايخ التي لن تلبث، بين لحظة وأخرى، أن تُحكم الطَّوْق حول العدوّ، وبجرّة قلم، حدّد السّيّد زدينتشيك تحرُّك جيوش الرايخ عبر آسيا الصغرى باتّجاه أفريقيا، حيث طوّقت الجيوش البريطانية التي وقعتْ في الكمين، ثمّ عبر إسبانيا، حيث وصلت إلى الخطوط الخلفية للجيوش الأميركية، وبعد ذلك تطرّق إلى الوَضْع في مَحمية "بوهيميا- مورافيا"، حيث سيُطبّق قريباً نظام العمل الإلزامي على الجميع، وهو الأمر الذي يُرتّب تبسيط البرامج التعليمية، واختصارها، وإغلاق المتاحف والمعارض الفنّيّة، وإلغاء بعض رحلات السّكّة الحديد، والامتناع عن مزاولة الرياضة إلا في أيّام الآحاد.

- هل هذه مؤخّرتكِ؟ سألها المستشار وهو يعرض على زدنيكا إحدى الصور.

- أجل، قالت، وابتسمتْ.

- مَنْ طبع عليها هذه الأختام؟ سألها المستشار فيما كان رئيس المحطّة يُدوِّن الأقوال.

- السّيّد هوبيكا، قالت.

- إذنْ، يا آنسة لانج، أخبرينا كيف حدث ذلك، قال المستشار زدنيتشيك.

- كنّا معاً في وردية الليل. ونحو منتصف الليل، قلّمتُ أظافري، إذ لم تكن هناك حركة قطارات، وكنّا نشعر بالمَلَل، قالت زدنيكا موضحة، وهي تنظر إلى السقف.

- على مَهْل، قال رئيس المحطّة.

- ثمّ قال السّيّد هوبيكا إننا سنلعب لعبة "طِرْ، يا حمام"، "طِرْ، يا عصفور"، طيري، يا طائرة، طيري، يا ورقة، طيري، يا سجّادة، طيري، يا طائرة الورق ... خسرتُ في البداية حذائي، ثمّ سروالي ... أوضحتْ عاملة التلغراف وهي تتبع بعينَيْهَا حركة القلم الذي يُدوِّن به رئيس المحطّة وقائع اعترافاتها.

- ومَنْ نزعه عنكِ؟ سألها المستشار.

- المعاون هوبيكا.

وكان المعاون جالساً على كرسيه وهو يضع ساقاً على ساق، وقبّعته النظامية على ركبَتَيْه، كانت صلعته الملساء تلمع، وكان موظّفو الإدارة من هراديك الذين ينظرون تارة إلى هذه الصلعة وتارة أخرى إلى عاملة التلغراف الجميلة، يتنهدون حسرة، ويهزّون برؤوسهم. ثمّ تابعوا استجوابهم بحماسة متجدّدة، متلهّفين لأن يعثروا على تفصيل مادّيّ، من شأنه أن يبرّر اللجوء إلى الملاحقة القضائية، بتهمة ارتكاب عمل شائن. أما أنا، فكنتُ أمارس وظيفي، أجعل الخطّ سالكاً، أو أعطي إشارة التّوقّف، وكنتُ أشعر أن السّيّد هوبيكا يلاحق بأفكاره القطارات كلها التي تعبر المحطّة، وأنه يراقبني. لطالما كان السّيّد هوبيكا مَثَلي الأعلى، منذ أن كنّا في دوبروفيتش، حيث كان مكلّفاً تدريبي، فهو يستطيع أن ينظّم تقاطع عبور قطارَيْن بيد واحدة، وباليد الأخرى يُبرق لمحطّة أخرى معلناً وصول حمولة. وها هو الآن كَمَن يَمْثُل أمام هيئة المحكمة.

كنتُ أدرك أنَّ هذَيْن الموظَّفَيْن، رئيس المقاطعة والمستشار زدنيتشيك، يودّان لو يفعلان بزدنيكا ما فعله السّيّد هوبيكا بالضبط، ولكنهما على قدر كبير من الجبن، شأن الآخرين كلهم، كانا خائفَيْن جدّاً، والوحيد الذي لم يكن يشعر بالخوف أبداً هو السّيّد هوبيكا الذي يتربّع على هذا الكرسيّ، ويتلذّذ بانتصاره.

- والآن، يا آنسة لانج، انتبهي جيّداً، قال المستشار زدنيتشيك وهو ينهض، هل تعرّضتِ لأيّ ضغط من قِبَلِه قبل أن تستلقي على طاولة التلغراف؟ هل هدَّدكِ؟ ألم يستخدم العنف؟

- لا، أبداً! على الإطلاق! لقد استلقيتُ من تلقاء نفسي. وحدي ... فجأةً شعرتُ بالرغبة في أن أتمدّد على الطاولة، وأنتظر لأرى ماذا سيفعل، قالت عاملة التلغراف بابتسامة.

- وأنتظر لأرى ماذا سيفعل، ردّد رئيس المحطّة مُدوِّناً.

هرعتُ إلى الرصيف، كان قطار عسكريّ تحت الحراسة الخاصّة يعبر على الخطّ الرئيس، ورأيتُ شبّاناً من أعمار فتية جدّاً يتمتّعون بحمام شمس على العربات المصفّحة، كانوا فتياناً مثلي، وبعضهم أصغر سنّاً، يلعبون بكرة خضراء، أحدهم يُغنّي من فوق برج المصفّحة: "ضيَّعتُ قلبي في هايدلبرغ"... ولكنْ، حين مرّوا أمام القطار المنخور بالرصاص، والركون على الخطّ الخامس، سكتوا، و باتوا كالأصنام، ومَنْ منهم رأى بعينَيْه هذه العربات المنخورة المعدّة للترحيل إلى مشاغل الصيانة بُهِتَ كالمشلول، حتّى الطُّهاة توقّفوا للحظة عن تقشير البطاطا، ممّا لا شكّ فيه أنّ هؤلاء الجنود شهدوا في بلادهم أشياء أشدّ هولاً، مُدُناً ومنازل مهدّمة، وأكواماً من الجثث، لكنهم، من دون شكّ، لم يتوقّعوا أن يروا هنا مثل هذه الفظائع.

دخلتُ إلى المحطّة، لأُبلغ عن عبور القطار.

اقترب المستشار زدنيتشيك من النافذة.

- هاكم فتياننا، أملنا. إنهم في طريقهم إلى القتال في سبيل أوروبا حُرّة، وأنتم ماذا تفعلون هنا في الأثناء؟ تختمون على مؤخّرة عاملة التلغراف! قال واقترب من الطاولة، وتفحّص الصور، ثمّ رماها.

- طبعاً، قال، أخفقْنا في إثبات الفعل الشائن ... ولكنها إهانة مُوجَّهة إلى اللغة الألمانية، إلى اللغة القومية! - وانتصب، وضرب بقبضته على الطاولة - إن نصف الأختام تحمل كلمات ألمانية. إنه تدنيس للمقدّسات!

وخرجتُ إلى الرصيف، ورفعتُ إشارة الخطّ السالك لقطار مستشفى عائد من الجبهة، قطار سريع تامّ تحويله إلى مستشفى.

وفي هذا المستشفى المتنقّل، رأيتُ أغرب عيون، قد يمتلكها بشر، عيون الجنود الجرحى، كما لو أن الألم، هناك على الجبهة، الألم الذي سبّبوه لآخرين، والذي سبّبه آخرون، بدورهم، لهم، كما لو أن هذا الألم جعل منهم رجالاً مختلفين، كان هؤلاء الألمان تبدو عليهم سيماء المودّة أكثر من أولئك الذين كانوا يعبرون في الاتّجاه المعاكس، إذ يتأمّلون المشهد الصفيق من خلال النافذة، بنظرات يقظة وطفولية، كما لو أنهم مرّوا بالفردوس، كما لو أنّ محطّتي الصغيرة هي أجمل القصور، وترتسم في عيونهم التعابير نفسها التي تبدو في عينَي السّيّد هوبيكا حين يتأمّل السماء. إذنْ، كنتُ ألمح الاهتمام نفسه في عيون هؤلاء المرضى الشاحبي السِّحَن الذين ينظرون نحوي، بعضهم يدير رأسه، وبعضهم يقف متشبّثاً بالحلقات المدلاة من سقف المقطورة، وبعضهم الآخر يتّكئ على كتف ممرّضة، كان هذا المستشفى المتنقّل في طريقه إلى الوطن، ولا شيء سوى أَسِرَّة بيضاء مزيّنة بأيد صفراء متشنّجة، وبوجوه شاحبة، وعيون طفولية. وكانت عربة المؤخّرة في هذا القطار المستشفى عربة بضائع مكشوفة، يقف عليها ممرّضان ينزعان سترة المستشفى عن إحدى الجثث قبل أن يرمياها فوق كومةٍ من الجثث الأخرى التي باتت متخشّبة ... جنود

ماتوا في الطريق ... ثمّ راح القطار المستشفى يختفي في البعيد، فيما فانوس عربة المؤخّرة الأحمر يغمز ويرنّ، يتأرجح ويصرّ.

- إنّ أنبل الأعراق البشرية تبذل أرواحها في سبيلكم، قال المستشار زدنيتشيك وهو لا يزال واقفاً أمام النافذة. أرأيتُم هذا القطار المستشفى؟ وأنتم، انظروا ماذا تفعلون! ولكنْ، ها قد انتهينا من هذا الأمر. دوِّن الخاتمة، أضافت مخاطباً رئيس المحطّة. إجراء تأديبيّ بحقّ السّيّد هوبيكا لاديسلاف.

خرج إلى رصيف المحطّة، وأشار بأن تقترب عربة نقل المستخدمين. صعدتْ عاملة التلغراف إلى الشاحنة، وجلستْ إلى جانب رئيس المقاطعة.

بلّغت وشوك انطلاق العربة، وأعطيتُ إشارة الانطلاق.

- هل تعلم مَنْ هم التشيكيون؟ قال المستشار زدنيتشيك. إنهم أفظاظ هازئون!

سارت العربة بمحاذاة القطار المنخور بالرصاص، والمركون على الخطّ الخامس، وكان المستشار زدنيتشيك يُمعن النَّظَر في الثقوب التي أحدثَها رصاص الرشّاشات في العربات التي نزعتْ سقوفها. صعد رئيس المحطّة إلى الطابق الأوّل، حيث راح يزعق ويقلب الكراسي، ويجعل فتات الكلس يتساقط في غرفة المكتب، كان يصيح باتّجاه فناء التهوية:

- لم يعد ثمّة أخلاق! كل شيء بات فاسداً! كما في مدينة "سدوم"

القديمة! يلوذ البغاءُ بالمقاهي والطاعم والمكاتب بمباركة الشرطة. أحد الأزواج يُرغم زوجته على ممارسة البغاء، ويُهدِّدها بأن يشطر ابنها بالمنشار إلى نصفَيْن لو رفضت الذهاب إلى سباق الخيل! الكل في انغماساته! الكل يلمع القربة! فالأحرى أن ينفخ اللهُ في صور القيامة، وتحلّ النهاية!

ثمّ دخل إلى المطبخ، وراح يخبط بقَدَمَيْه، ليظهر لنا جيّداً أيّ جلجلة يُكابِد، لمجرّد أن نكون مرؤوسيه. وبعد مضيّ ساعة، كان يهمّ بالدخول إلى مكتبه. بالبزّة النظامية الكاملة. وفي الأثناء، كان آخر الثيران يُقتاد إلى رصيف التحميل، الثور الذي تمّ نقله بواسطة شاحنة كبيرة إلى المحطّة، وكانت ابنة المزارع جرَّتْه إلى الشاحنة، لتُسلِّمه للجزّارين، وفي الطريق، رأى الثور لوناً أحمر: فقال المعلّم لصبيّه: يا بوهوس، ابن الزنا هذا سيقلب الدنيا علينا، خذ هذا السّكّين، وافقأ له عينَيْه! ولم يكن من صبيّ الجزّار بوهوس الذي روى لنا ما حدث في مكتب المحطّة إلا أن مَدّ يده، وفقأ عينَي الثور بضربَتَي سكّين. "وبعد ذلك، أصبح الثور وديعاً كالحمل، قال الصبيّ بوهوس موضحاً، ومن المؤكّد أنه بات غير متمسّك بالحياة". وعندما أحدث الزبائن ضجّة وهم يُوصدون باب العربة وراء الثور، استيقظ رئيس المحطّة. كانت الحمامات تتخطّر على حافة النافذة، وتهدل، وتمدّ أعناقها نحو رئيس المحطّة، ولكن رئيس المحطّة كان يرمقها مقطّباً، ويهزّ برأسه، ويمرّر إصبعه تحت الياقة، ثمّ يعود ويستغرق من جديد في أفكاره، كان حزيناً، وأشدّ فأشدّ حزناً. فتح الخزانة، ونظر إلى بزّته الجديدة التي لم يستطع أن يرتديها بعد، والتي طرّزتْ عليها النجمة المذهّبة الوحيدة والمزيّنة بالشارة المذهّبة والخيط المذهّب، عَينُ

الخيط الذي يُستخدَم لخياطة فند الزيزفون شارة الجنرالات.

لشدّة قنوطه، هُرع إلى مكتب المحطّة، ودلف إلى المطبخ في الطابق الأوّل، ولكي يتأكّد من أننا نسمعه، صرخ تكراراً نحو فناء التهوية:

- بإمكاني، الآن، أن أضعها في مكان ما، كتفية المفتّش هذه!

فيما بعد، بعد أن عبر آخر قطارات المسافرين، وبعد أن مكث لبرهة على الرصيف مُتأمّلاً السماء الموشّاة بالزرقة لمستهلّ الربيع، حيث كان يرى، بالتأكيد، المشهد الذي جعله ذائع الصيت في نواحي هراديك كراكوف بأسرها، حيث كان يرى، بالتأكيد، هذا الشريط السينمائي وعاملة التلغراف تستلقي على الشاشة الواسعة الزرقاء، فيشمّر تنّورتها، ويتناول الأختام واحداً تلو الآخر، أختاماً كبيرة بحجم أجراس الكنيسة، ويطبع هذه الأختام على اللحم الطريّ لمؤخّرة عاملة التلغراف، بعد ذلك، إذنْ، التفت المعاون وحسم أمره، وتحت السقيفة المائلة، حيث عتلات وروافع ضبط الخطوط والملوّحات والإشارات، قال لي بصوت خفيض:

- ميلوش، غداً سنكون معاً في وردية الليل ... وسيعبر المحطّة قطار بضائع مؤلّف من ثمان وعشرين عربة محمّلة بالمتفجّرات، فهم ينقلونها في عربات مكشوفة، سيمرّ القطار في محطّتنا عند الثانية فجراً. ولا يفصل بين محطّتنا والمحطّة التالية سوى سهل فسيح، لا أثر فيه للمباني ... وقد ينفجر هذا القطار في صحّة الكون ...

- طبعاً، يا سيّد هوبيكا، ولكنْ، كيف؟

- سوف نحصل على ما نحتاجه عندما يحين الوقت.

وأين هو هذا القطار؟

- ينطلق غداً من تربيك.

- إذنْ، نحن مَنْ سيراقب القطارات العسكرية منذ الآن، أليس كذلك؟ أجبتُ بنبرة مرحة، وغرقت السقيفة للحظةٍ في الظلام. كان سرب حمام الوشق عبر لتوّه من أمام النافذة.

* * *

جاء من القصر مَنْ يُعلن أن رئيس المحطّة مَدعوّ إلى العشاء عند الكونت كينسكي، وأن أحد الخَدَم سيأتي لاصطحابه عند الساعة السابعة. وفي مكتب المحطّة، أسدلتُ ستائر التمويه، وأشعلتُ النور. وفي مكتب الرئيس، حيث الكهرباء متوفّرة، أشعلت مصباح الكاز ذا الفتيل المدوّر والكُمّة الخضراء. ذهبتُ لأنضمّ إلى السّيّد هوبيكا، ولأهتمَّ بالقطارات التي تعبر المحطّة، وكنتُ أشير بفانوسي الأخضر. أحضرَ رئيسُ المحطّة برّة البارونية ذات البنطال الرماديّ إلى مكتبه، ومعها قميص صيّاد وقبّعة تيرولية مزيّنة بأرياش ديك الخلنجة. ولم يغلق باب المكتب في أثناء ارتدائه ملابسه. وكانت السعادة بادية عليه.

على طريق القصر، كان الخادم يسير باتّجاهنا على صهوة جواد أبيض، وإلى جانبه جواد أبيض آخر. كانت النجوم تلمع في السماء، والليل يومض، وكان الثلج الذي أصبح جليداً يفتُّ ويُصرّ تحت النعال. وكان المصباح الأخضر يهسُّ بهدوء في مكتب رئيس المحطّة الذي يتمعّن في مظهره في المرآة. كان يرتدي برّته الرسمية وقفّازَيْن من جلد الأيل وقبّعته التيرولية. وعلى الأرضية كان المصباح يعكس دائرة بيضاء، تتشكّل حولها، ثمّ تتلاشى، دوائر أكبر حجماً، تشبه القفص

الصدري لهيكل عظميّ. هكذا عندما كنتُ أقضي عطلتي في بيت جدّتي، كانت تضيء مصباح كاز على الطاولة، وعند المساء يحلو لي أن أظلّ مستلقياً على سريري وأنا أراقب الأخيلة المتداخلة عند السقف، إذ تتشكّل حول الدائرة البيضاء التي يعكسها ضوء المصباح. وحيثما أقلّب نظري أرى دائماً الهيكل العظمي إيّاه على السقف، حتّى وأنا مغطّى الرأس والعينَيْن، كنتُ أرى دائماً السقف والهيكل العظميّ. وذات مساء فيما كنتُ أنظر إلى السقف، أحضرتْ جدّتي حطباً في إزارها، وأسقطتْه أمام المدفأة، فأحدثتْ جلبة، فصرختُ: الهيكل العظميّ فَقَدَ ساقَيْه!

وصل الخادم إلى الرصيف على صهوة جواده الأبيض، وإلى جانبه حصان أبيض آخر مُسرج. كان الجوادان لشدّة بياضهما يشعّان بالضياء كدغل ياسمين مزهر في ليلة صيف.

ثمّ خرج رئيس المحطّة من مكتبه، فترجّل الخادم، وأعان رئيس المحطّة على تثبيت قَدَمه في الركاب. أرخى الرئيسُ العنانَ، وابتعد خَبَباً في اتّجاه برج الحمام، وصرخ رافعاً رأسه:

- نامي جيّداً، أيّتها الحمامات الصغيرات! فأنا عائد إليكِ! لن يهجركِ رئيس المحطّة! نامي، أيّتها الصغيرات!

هدلت الوشقات، وصفقتْ بأجنحتها على مُصبّعة كوّة البرج المخفوضة، فيما رئيس المحطّة يبتعد على حصانه، برفقة الخادم. ثمّ اجتازا خطّ السّكّة، وغدا الجوادان الأبيضان على تربة الطريق الصلبة، وكان وقع حوافرهما مسموعاً، وحلّتهما البيضاء تمتزج بالسهل

المغطّى بالثلوج، وكان واقع المشهد غريباً، إذ ترى رئيس المحطّة والخادم بطيفَيْهما وثيابهما الداكنة وكأنهما مُعلَّقان في مدى الفراغ.

أخرج السّيّد هوبيكا مخطّطات السير الملفوفة كقطعة قماش أو حرير، وبسطها، وانكبّ عليها متتبّعاً خطّ السير بطَرف قلمه.

أزحتُ الستارة الخضراء، وبدأتُ ببيع التذاكر، إذ شرع المسافرون يتوافدون إلى صالة الانتظار المعتمة قليلاً، وكانوا يبتاعون تذاكرهم، ثمّ يعودون إلى الزوايا المعتمة، ويتجنّبون الخروج إلى صقيع الأرصفة، ويراقبون الموظّف، ليخمّنوا من حركاته ما إذا كان موعد وصول القطار البطيء الذي سيستقلّونه بات وشيكاً، وكنتُ، في بعض الأحيان، أتصرّف معهم بخبث، مثلاً أن يكون موعد وصول قطارهم بعد نصف ساعة، فأنهض، أرتدي معطفي، وأرفع ياقته، ثمّ أخرج إلى الرصيف، وأتظاهر بأني أنتظر قطارهم، فيُهرع المسافرون ورائي، ولكنْ، ما إن أسير بضع خطوات حتّى أضع فانوسي بجانب خطّ السّكّة، وأعود إلى مكتبي الدافئ، فلا يلبث المسافرون أن يشعروا بالبرد، فيعودون إلى صالة الانتظار، ويجلسون حول المدفأة، ويرمقونني بنظرات عدائية. كان رئيس المحطّة ينتهز، هو أيضاً، ظلال الليل وستاره، فينتعل حذاء مطّاطياً، ويقوم بجولة على أرجاء المحطّة، ليرى ماذا يفعل المستخدَمون، حتّى إنه فاجأني ذات مرّة نائماً، في ساعة متأخّرة من الليل. كنتُ جالساً على كرسيّ، مطرق الرأس، وغارقاً في النوم، وكان رئيس المحطّة واقفاً بجوار شبّاك الصندوق في صالة الانتظار يُراقبني من وراء الستارة الخضراء، ثمّ خرج إلى الرصيف دون أن يُحدث أيّ صوت بحذائه المطّاط، وفتح الباب على مهل، ومكث ساكناً لبرهة بجواري، يتأمّل المشهد، ثمّ أمسكني من كتفي، وراح يهزّني، وأنا، في

غفوتي العميقة، حسبتُ أنني في بيتي، وأنه حلّ الصباح، فقلتُ: كم الساعة، يا أبي؟ فزعق رئيس المحطّة: تباً لكَ، ولآبائكَ! أنا رئيس المحطّة ولستُ أباكَ! وأنت الآن في وردية الليل! بوقاحة يُناديني أبي! ثمّ بعث بتقرير إلى هراديك وتلقيتُ إنذاراً.

كان قطار المسافرين يدخل إلى المحطّة، فخرجتُ إلى الرصيف، وهُرع المسافرون من صالة الانتظار، كان القطار يصل ببطء، وماشا تقف على مرقاة العربة الثانية، وشاحها الأبيض يلوح كبقعة ضوء في الليل، كان مصباح الخدمة مثبتاً على صدرها، وثقّاب التذاكر معلّقاً برباط في معاصمها، وكالمعتاد، كما في اليوم الذي طلينا فيه السياج بعنابر سكك حديد الدولة، كانت مهفهفة مثل قرش جديد في نهاية يوم العمل، كما لو أنها لم تبدأ نهارها بعد. قفزتْ عن المرقاة. وحين مَدّتْ ساقَهَا، رأيتُ حذاءها الأسود وجاربَيْها الأبيضَيْن، وكانت غمّازتاها تلمعان، ووجهها يتألّق في الليل الأزرق، كما لو أنها غسلتْ أذنَيْها للتّوّ بطرف منديل. وقدّمتْ لي تفّاحة، وكنتُ أحمل الفانوس بيد، والتفّاحة باليد الأخرى، وماشا تلتصق بي. ضمّتْني بذراعَيْها، وكانت أقوى منّي، وجهها يفوح رائحة الحليب، وتضمّني إليها بقوّة حتّى إن مصباح الزيت كان يلسع صدري، وتحرقني شعلته حتّى أعماق قلبي، وماشا تهمس:

- ميلوش، ميلوش، كم أحبّكَ، كلّ الذي حدث بسبب غلطة اقترفتُها أنا، لقد سألتُ فتيات أخريات كيف ينبغي أن أتصرّف، سألتُ فتيات تكبرنني سنّاً، وأنا واثقة بأن كل شيء سيكون على ما يرام، فأنا أعرف الآن كيف أتصرّف، هل تفهمني؟

ابتعدتْ عنّي قليلاً، وأخرجتْ جدول المواعيد من جيبها، فتحتْه، وناولتني صورة لا أذكرها، وأحسستُ من مَلمسها بين أصابعي كم أصبحت تالفة تلك الصورة ... إنها صورتي التي احتفظتْ بها يوم طلينا السياج باللون الأحمر، صورة صبيّ في ثوب أزرق سماوي، وقلبتُ الصورة، ولاحظت صورةً أخرى أُلصقت بها، وأدركتُ على الفور مَنْ كان صاحب الصورة التي أُلصقت عليها، صورة لماشا وهي طفلة صغيرة في ثوب أزرق سماوي هي أيضاً، وكانت هاتان الصورتان الملصوقتان ظهراً على ظهر مقصوصَتَيْن بشكل بيضاوي.

- ميلوش، متى ستعود إلى البيت، متى؟ سألته.

- بعد غد، إذا أردت. قال مغمغماً.

كان عليّ أن أُطلق إشارة ف٩، التي تعني: رؤساء طواقم القطارات إلى مراكزكم، ورفعتْ عاملات المراقبة مصابيحهنّ للإشارة بأن كل شيء بات جاهزاً للانطلاق، ورفعتُ فانوسي الأخضر، وتحرّك القطار، فضمّتْني ماشا، والتصقتْ بي من جديد، وضمّتني بقوّة، كما كانت صورتانا، بلا شكّ، ملصوقَتَيْن، إحداهما بالأخرى، لكي لا تنفصلا من جديد، ثمّ قبّلتْني، وأمسكتْ بالمقبض المعدني، وقفزتْ إلى المرقاة، كنتُ أرى على صدرها شعلة مصباح الخدمة الزرقاء، وكنتُ أقف هناك، مشدوهاً لشعوري بأنني رجل حقّاً، وفي استطاعتي أن أتحسّس ذلك، وتحسَّستُ نفسي، أجل، كنتُ رجلاً، ولكنْ، كيف أمكن أن يحدث ذلك؟! كيف أمكن أن يحدث ذلك مع ماشا، عند اللحظة الحاسمة ذبلت فجأة مثل زنبقة؟! كان آخر لقاء لنا في المستشفى عندما جاءت لعيادتي، كانت منحنية على سريري،

ترتدي سترة نظامية زرقاء ذات أزرار فضّيّة، وحين كانت هذه السترة تنحني عليّ، كانت أزرارها تلمع كأضواء فوانيس الجسر، قبّلتْني، ولكنْ، قبل أن تفعل انزلقت صفارة الخدمة السوداء من جيب السترة الأعلى، وسقطتْ على لثّتي، ثمّ جلستْ على سريري فوق يدي المضمّدة، ولكنْ، سرعان ما توجّب عليها أن تذهب، كان أحد المرضى قد استفاق من البنج، وأراد أن ينهض، وأدرك أنه مربوط بأحزمة، فراح يصرخ، ماكس، اترك المقود، اترك المقود، ماكس! واستطاع أن يحرّر إحدى يَدَيْه من الرباط، وفتّش متلمّساً تحت السرير، وأمسك المبولة الزجاجية، ورماها بكل قواه، فطارت المبولة عبر الصالة، وصدمت الجدار المحاذي لسريري، وتحطّمتْ، فاندلق البول المُراقُ على ماشا، فابتعدتْ والقطرات تتلألأ في شعرها، فطيّرتْ نحوي قبلة وهي تقف عند الباب، وعندها نظرتُ إليها لأوّل مرّة. وفيما بعد، يوم خروجي من المستشفى، تلفَّتُّ من حولي، ولكن أحداً لم يأت لملاقاتي، ذلك اليوم كنتُ مكتئباً، لأن نزيلة السرير المحاذي لسريري، فتاة في الخامسة عشرة، وجدتْ في خزانتها هدية من أهلها، جزمة مخملية، فلم تقاوم، انتعلت الجزمة، وسافرت إلى براغ، وهناك، عند المنعطف الصخري، في نواحي ساتاليس، اصطدم القطار بقطار آخر للمسافرين، وعلقتْ ساقا الفتاة بين المقاعد. وعندما استفاقتْ بعد العملية الجراحية، لم تكفّ عن الصراخ: ضَعْ جزمتي في الخزانة، ضع جزمتي ... خرجتُ من المستشفى بمفردي، وكنتُ حين أرى انعكاس وجهي في الواجهات لا أعرف نفسي، أبحث عن وجهي، فلا أجده، كما لو أنني أصبحتُ شخصاً آخر، ومكثتُ على هذه الحال حتّى تعرَّفتُ على وجهي ماثلاً أمامي في إحدى الواجهات، كنتُ أشعر بأن الواقف أمامي هو أنا نفسي، ولكنْ، كنتُ

أحسب أنه شخص آخر، رفعتُ يدي، فرفع الآخر يده في الخيال الذي ينعكس في الواجهة، ورفعتُ الذراع الأخرى، فحذا الآخر حذوي، ونظرتُ، فما الذي رأيتُ؟ بناء يقف قربة الدرابزين، رجلاً هائل البنية، يرتدي ثياباً بيضاء وملطّخة بالجصّ، وعلى قارعة الطريق عبوة لإطفاء الحريق "مينيماكس"، والبناء يرمقني، وهو يلفّ سيكارة بين أصابعه، ثمّ يضع السيكارة بين شَفَتَيْه، ويُشعل عود ثقاب، ويسحب عود الثقاب هذا في الواقي الذي جعله من راحة يده، ويحني رأسه، ويُشعل سيكارته، لكنه لا يخفض عينَيْه عنّي، كما لو أن باب الفندق في بسترس بنيسوف لا يزال يفصل ما بيننا، ذلك الباب المفتوح الذي كنتُ أتلصّص من فتحته على البناء، فيما البناء يتلصّص عليّ من الناحية الأخرى ... وكنتُ أحسّ كأن شخصاً ما يُمسك قبضة الباب إيّاه، ولكنْ؛ من الناحية الأخرى. وأدركتُ أنّ هذا البناء العجوز الذي يرتدي ثوباً أبيض ملطّخاً بالجصّ هو الله نفسه، ولكنْ، متنكّراً ...

عدد من قطارات البضائع عبر المحطّة، ثمّ قطار بطيء، كانت بوارق ضوء خافت تنبعث من مقطورة الخدمة مثل الشعيرات التي تبرز من أطراف المايوهات بين فخذَي الفتيات عند أحواض السباحة، وكانت معازق السائقين تقلب الفحم في أفران القاطرات، وينبعث الضوء في عتمة الليل فيما جسد السائق الدؤوب يعكس ظلاً على حوافّ مقطورة الماء والوقود، وتتناوب ملوِّحة الوصول وملوِّحة الانطلاق الإضاءة الحمراء والخضراء، والإشارات الضوئية المثبتة على عتلات التوجيه تبرز يافطاتها البيضاء، مثلّثاً عمودياً ضيّقاً للإشارة إلى الخطّ المستقيم، ومثلّثاً أفقياً، للإشارة إلى منعطف في الخطّ، وهناك حيث يُفضي الخطّ إلى طريق مسدود، قرب الليفربول،

يوجد فانوس أزرق يظلّ مضاءً طوال الليل، وفي البعيد، تُصرّ أضلاع الملوِّحات كلّما تبدّل الضوء، وفي المكتب، تعلو تكّات الأجهزة، ويحدث أن توصل العاملة أحد خطوط الهاتف خطأ، فيُصدر رنّة خفيفة، فيما كتلة التحويل تصرّ، كلّما فتح جهاز إغلاق الخطوط، وكان السّيّد هوبيكا يذرع الرصيف جيئة وذهاباً وسط هذه الزقزقة الخفيفة، ورأسه يعجّ بالهواجس، بسبب ذلك القطار الذي بات تحت مراقبته المشدّدة، والذي سيصل بعد منتصف الليل قاطراً ثماني وعشرين عربة محمّلة بالمفرقعات. كان يتتبّع ذلك القطار على مخطّطات السير، ثمّ يصيخ السمع، ويخرج إلى الرصيف ليلاً، ليسبر عتمة الليل، ثمّ يدخل إلى صالة الانتظار، فيما كنتُ أفكّر في ماشا، وأرتعش لمجرّد أن أفكّر في ما سيحدث عندما تحين اللحظة الحاسمة. أنا أيضاً كنتُ واقفاً على رصيف المحطّة، أنظر إلى السماء المظلمة، وأرى فيها فيلمي، جعلتُ ماشا تتمدّد على مساحة السماء، كما جعل السّيّد هوبيكا زدنيكا تتمدّد على طاولة التلغراف، ورحتُ أنزع عنها ثيابها قطعة تلو الأخرى، وما لبثتْ أن أصبحت ممدَّدة وهي عارية تماماً على مساحة السماء، أما أنا، فكنتُ لا أعرف ماذا أفعل بعد، أو كنتُ أعرف، ولكنها تجربة لم أخضها من قبل، إذ لم يسبق لي أن ولجتُ امرأة من قبلُ، باستثناء الوقت الذي قضيتُه في بطن أمّي، ولكن هذا ممّا لا أستطيع تذكّره ...

ثمّ سمعتُ السّيّدة لانسكي تهبط السّلّم وهي تحمل شمعة بيد، وباليد الأخرى قِدراً مليئاً بالفول، وسمعتُها تدخل إلى القبو، حيث الإوزّة تُكركر من الهَلَع. كنتُ واقفاً على رصيف المحطّة، وأنظر إلى القبو من خلال مربّع كوّة التهوية، وانحنت السّيّدة لانسكي وظلُّها إلى

الأمام، تناولتْ حبّة فول من القِدر، وفتحتْ منقار الإوزّة، ودسّتْ فيه حبّة الفول، ثمّ أمسكتْ بالمنقار، كما تُمسك بنصل مطواة، وبحركة من أصابعها، أنزلت حبّة الفول في الحلقوم الطويل حتّى الحوصلة. وبعد ذلك، بلّلتْ حبّة فول أخرى في الماء، وواصلتْ إطعام الإوزّة التي كانت تتململ بين يَدَيْها.

- سأعود حالاً، خذ مكاني لدقيقة واحدة، قلتُ للسّيّد هوبيكا، أنا ذاهب لأبول.

سرتُ متلمّساً بمحاذاة الجدار المكوّع، وهبطتُ السّلّم الحلزونيّ بحذر درجة درجة، وفتحتُ باب القبو بهدوء:

- لا تخافي، يا سيّدة لانسكي، قلتُ. هذا أنا، ميلوش.

- ما الأمر؟ قالت هَلِعةً.

ومكثتْ بلا حراك، حبّة فولٍ بين إصبعَيْها وضوء الشمعة، من ورائها، يلتمع من خلال خصلات شعرها الرمادي، وكنتُ أرى وجهها المعذّب، كانت أشبه بسندريلا، فيما رئيس المحطّة يتلهّى بلعب دور البارون لانسكي دولاروز.

- هذا أنا، ميلوش، قلتُ. جئتُ، يا سيّدة لانسكي، لأسألكِ النصح. إذنْ، بعد غد، سألتقي صديقتي، كما تعلمين، ماشا، عاملة المراقبة؟ وبالتأكيد، ستطلب منّي ... هل تدركين ما أودّ قوله؟

- لا، غمغمت السّيّدة لانسكي، وانحنتْ، لتغمس حبّة الفول في الماء، وفتحتْ منقار الإوزّة.

- لا بدّ أنكِ تفهمين جيّداً، قلتُ. لا تتظاهري بعدم الفَهْم، لقد جئتُ أطلب منكِ نصيحة ... الحكاية هي أنني رجل، ولكنْ، عندما تحين الفرصة، لأبرهن على رجولتي، لا أعود رجلاً. في المكتب، يُسمّون هذا الأمر القذف المبكر، هل تفهمين؟

- لا، لا أفهم، قالت السّيّدة لانسكي وهي تغمس حبّة فول في الماء.

- ولكنْ، يجب أن تفهمي، قلتُ. في هذه اللحظة مثلاً، أظنّ ... أعني، في هذه اللحظة، أنا رجل ... انظري بنفسكِ!

- أيّتها السّيّدة العذراء! همسات السّيّدة لانسكي. أنا في سنّ اليأس، يا ميلوش.

- ماذا؟

- سنّ اليأس. ولكنه أمر فظيع.

غضبت السّيّدة لانسكي، وأوقعت القِدْرَ.

ركعتُ على ركبتي، لأجمع حبّات الفول، وكانت السّيّدة لانسكي تلمّها هي أيضاً. وكنتُ أشرح لها في الأثناء بأنني قطعتُ شرايين معصمّيّ، لأنني لم أستطع أن أُثبت لماشا رجولتي في محترف العمّ نومان، في محترف خمس دقائق من الانتظار فقط، لأنني لم أستطع أن أصمد ولو لخمس دقائق فقط، وأن كل شيء انتهى قبل أن يبدأ. وكانت السّيّدة لانسكي صامتة، تُمسك الإوزّة من منقارها.

- تحسَّسيه، يا سيّدة لانسكي، قلتُ.

- سأتحسّسه، يا ميلوش، قالتْ، وانحنتْ إلى الأمام تماماً كما فعل ظلّها على الحائط، وأطفأت الشمعة.

- إذنْ، أنا رجل؟ سألتُها.

- أجل، يا ميلوش، قالت.

- والآن، يا سيّدتي، هلا أعطيتِني درساً؟ إنها خدمة أطلبها منكِ. أرجوكَ ... لقد نصحني الدكتور برابك، في المصحّ، أن أبدأ تجاربي كبالغ مع امرأة، تكبرني سنّاً ...

- ولكنْ، يا سيّد ميلوش، أنا، من جهتي، في سنّ اليأس، ولا أريد أن أسمع منكَ مثل هذا الكلام، صحيح أنني أتفهّم حالتكَ، ولو كنتُ أصغر سنّاً، يا يسوعي الرقيق، ماذا جرى لكم جميعاً في هذه المحطّة؟ السّيّد هوبيكا وأختامه، ثمّ أنتَ، تأتي وتحدِّثني عن تجربة أوّل البلوغ ... ولكنْ، سوف ترى كل شيء سيكون على ما يرام بعد غد، أنتَ رجل، ورجل لا كالرجال!

من خلال الكوّة، كنتُ أرى السّيّد هوبيكا يتقدّم بضع خطوات، ورأيتُه ينتصب بثبات على الرصيف، ويبدأ بتأمّل السماء، وكنتُ أعرف جيّداً ما الذي يراه فيها. لم يعد السّيّد هوبيكا يرى عاملة التلغراف منفرجة الساقَيْن وهي تسند مؤخّرتها على السحاب، بل قطار بضائع يدخل بطيئاً إلى المحطّة، ثمان وعشرون عربة ستتلاشى دفعة واحدة متطايرة في السماء، وكأنها سحابة هائلة، وهذه السحابة لن تتوقّف

عن الاتّساع مثل قزع يتجمّع في السماء قبل عاصفة صيف، ويرتفع إلى أعلى .. إلى أعلى ...

- ألستِ غاضبة منّي، يا سيّدة لانسكي؟ قلتُ.

- طبعاً، لا، يا ميلوش، هذه الأمور كلها طبيعية، قالتْ.

ثمّ مشتْ متلمّسة محاذاة الحائط، وتسلّقتْ درجات السّلّم بخُطى ثقيلة حتّى الطابق الأوّل، وراحت تذرع أرض الغرفة والمطبخ جيئة وذهاباً، كما كان يفعل رئيس المحطّة حين لا يستطيع أن يقول لنا صراحة مأخذه علينا، فكان يُفرغ ما في نفسه بشأننا عبر فناء التهوية، ثمّ يهبط إلينا، وديعاً ومُطهَّراً، ذلك أنه إذا لم يستطع أن يصرخ عبر النافذة، كان يصرخ في وجه زوجته، ويخاطبها بعبارات فظيعة، ويرمي بوجهها كل ما يعتمل في داخله من دَنَس، ويقول لها كل ما يخطر له، بحيث إنه لم يكن مُجبَرَاً مثلي على قَطْع شرايين معصَمَيْه، ولم يكن عليه أن يُشمّر تنّورة عاملة التلغراف، وأن يطبع على مؤخّرتها أختام المحطّة، كنتُ أعرف سَلَفَاً أن رئيس المحطّة لا يُمكن أن يفقد صوابه، فقد كانت له صحّته العقلية الخاصّة به، إذ يُطلق كل ما يثقل قلبه زعيقاً في فناء التهوية، والباقي على رأس زوجته التي تعرف متى ينبغي أن تصفعه على وجهه بخرقة مبلّلة، أو متى تقول له كلمة صغيرة بالغة البذاءة، من شأنها أن تجعله يقع على قفاه كالصفعة الفعلية التي، على إثرها، يشعر بأنه استيقظ من كابوس.

كان السّيّد هوبيكا كلّما اقترب منتصف الليل، ثارت أعصابه، وتنهّد، وكان يقف للحظة، ويصغي، ولا يتوقّف عن الإصغاء. كنتُ

أرى بوضوح أنه ينتظر أن يُفتَح الباب في أيّة لحظة، وأن تمتدّ يد منه حاملة له رسالة أو طَرْداً.

- كم هي جميلة دقّة ساعة الحائط في مكتب رئيس المحطّة، قلتُ حين دقّتْ ساعة الرئيس انتصاف الليل.

فُتح الباب، كما لو كان ذلك بفعل مجرى هواء، ودخلت امرأة فتية كانت ترتدي معطف مكنتوش مُشمّعاً، وغير مُزرَّر، وتحت المعطف تبدو بلوزتها التيرولية المزركشة بتطريز أخضر، يُبرز رسوم أغصان وثمر بلّوط. وكانت ترتدي تنّورة رمادية وجورَبَيْن من الصوف الأبيض، وتنتعل جزمة عالية ذات لُسَين مشدود بدقّة وأناقة.

كانت تحمل بيدها رزمة صغيرة، لُفَّتْ بشريطة.

- لو سمحتَ، قالتْ بالألمانية، أريد الذهاب إلى كيرسكو.

- كيرسكو، قلتُ. يجب أن تنتظري حتّى صباح الغد، إنها تقع في الناحية الأخرى من النهر.

- ولكنْ، ينبغي أن أذهب إلى كيرسكو.

- إنها بعيدة. مَنْ تقصدين هناك؟ قلتُ ...

- لديّ صديق هناك، قالت مبتسمة، ثمّ أشارت نحوي بإصبعها. هل أنتَ السّيّد هوبيكا؟

- لا، قلتُ، إنه هو.

- أنتَ السّيّد هوبيكا؟ سألتُه.

- أجل.

- وهذا، قالتْ، وهي تشير نحوي بإصبعها.

- إنه صديقي، قال السّيّد هوبيكا.

- ميلوش هرما، قلتُ.

- فيكتوريا فراي، قالت. وانحنتْ، ومدَّتْ لي يَدَهَا.

- فيكتوريا فراي؟ قال هوبيكا مدهوشاً.

كنتُ أعرف أنها الوسيط، أفهم ذلك، وأعرف أن فيكتوريا فراي هذه هي اليد التي تنقل كلمة السّرّ والرسالة، ولكنْ، لم يبد أن الرسالة أعجبتْ، حتّى اللحظة، السّيّد هوبيكا، فقد ازداد لونه شحوباً، وكأنّ ظهور هذه المرأة أفقده رباطة جأشه كلها، وكنتُ ألاحظ أنه لم يُبد أيّ رغبة، كانت امرأة جميلة، ولكنه لم ينظر إلى نهدَيْها، أو مؤخّرتها على عادته في تعرية النساء بنظراته. وهذه التيرولية، أنا الذي كنتُ أنظر إليها، وألاحظ أنها في الوقت نفسه كفل جميل ونحر جميل. خرجتُ إلى الرصيف، وأعطيتُ إشارة العبور لقطار بضائع، أغرقتُه بالضوء الأخضر. ثمّ حين عدتُ إلى مكتب المحطّة لأبلغ المحطّة المجاورة ساعة عبور القطار محطّتي كانت الرزمة قد اختفتْ. كانت فيكتوريا تتثاءب، وتتمطّى، وترمقني بنظرات معسولة. وفجأة باتتْ توحي لي بالثقة، وحين قالت إنها تودّ لو تنام لساعة واحدة، فتحتُ باب مكتب

رئيس المحطّة، كما فعل السّيّد هوبيكا في محطّة دوبروفيش قبل أن يبقر كنبة القماش الشمع، ودخلتُ، وأحضرت سترتي النظامية، وبسطتُها على الكنبة، كان غطاء المصباح الأخضر يُشيع ضوءاً ناعماً، وكنتُ أسمع الحمامات وهي لا تزال مضطربة في البرج، بل أكثر اضطراباً ممّا كانت عليه حين غادرها رئيس المحطّة، ومَنْ يسمع هديلها المضطرب وتصفيق أجنحتها يحسب أن سموراً أو ابن عرس تسلّل إلى برجها.

- أُدعى ميلوش هرما، قلتُ متلعثماً. وتعلمين، قطعتُ شرايين معصمَيّ، لأنني أعاني، على ما بدا لي، من القذف المبكر. ولكن هذا ليس صحيحاً .. طبعاً ذبلتُ مثل زنبقة في اللحظة الحاسمة مع صديقتي، ولكني، مع ذلك، رجل.

- ألم تضاجع امرأة من قبلُ؟ سألتْ فيكتوريا فراي بدهشة.

- لا، فقط حاولتُ. ولهذا السبب أسألكَ النصح ...

- ولكنْ، صدقاً، ألم تضاجع امرأة من قبلُ؟ كرّرتْ سؤالها بدهشة أكبر.

- لا، أبداً، ذلك أن ماشا جاءت، واستلقتْ بجانبي في منزل عمّها نونمان في كارلين، ولكنْ، لم يحدث شيء بيننا. كانت ممدّدة قربي ملتصقةً بي، وكما أخبرتكِ، ذبلتُ مثل زنبقة.

- إذنْ، هذا صحيح، لم تضاجع امرأة من قبلُ، قالتْ، وابتسمتْ، وبدتْ لها غمّازتان مثل ماشا، واكتستْ عيناها مسحة حنان، كما

لو أنها تُعجب للفرصة التي سنحتْ، أو أنها اكتشفتْ شيئاً نادراً، وغرزتْ أصبعها في شعري، كما لو كنتُ بيانو، ثمّ نظرتْ إلى الباب الموصَد الذي يفضي إلى مكتب المحطّة، وانحنتْ على الطاولة، ورفعت الفتيل، وسمعتُها بوضوح تنفخ شعلة المصباح، وأحسستُ بيَدَيْها على جسدي، وجرّتْني إلى الكنبة، وارتمتْ على ظهرها على الكنبة، وجذبتْني إليها، كانت رقيقة معي، كما كانت أمّي في صغري حين تُلبسني ثيابي، أو تنزعها عنّي، سمحتْ لي بأن أساعدها في رفع تنّورتها، ثمّ شعرتُ أنها ترفع ساقَيْها، وتفتحهما، وضعت جزمتها التيرولية على كنبة رئيس المحطّة، وفجأة أصبحتُ ملتصقاً بفيكتوريا، كما كنتُ ملصوقاً على صورة ماشا، وأنا في صورة صبيّ ببزّة بحّار، وأحسستُ أنني أغرق في نور، يزداد سطوعاً، وأطير وأرتفع من دون توقّف، والأرض ترتجّ، ولم يكن سوى قصيف رعد وهديره، كان الصخب لا ينبعث لا من جسدي ولا من جسد فيكتوريا، بل من الخارج، إذ بدا المبنى بأكمله مهتزّاً من أُسُسه، وزجاج النوافذ يرتجّ، وحتّى الهواتف تُطلق رنينها ابتهاجاً بدخولي المظفر والمبجّل إلى الحياة، كانت أجهزة التلغراف تدوِّن من تلقائها رموز المورس، كما يحدث أحياناً في مكاتب المحطّات في أثناء العواصف، وكنتُ أحسب أنني أسمع حمامات رئيس المحطّة تُطلق هديلها مجتمعة، وأرى الأفق يعلو ويشتعل بألوان اللهب كلها، ثمّ يهتزّ مبنى المحطّة من جديد، وينزلق قليلاً عن دعائمه. ثمّ أحسستُ بجسد فيكتوريا يتقلّص ويتقوّص مثل قنطرة، وسمعتُ نعلَيْها المحدّدين يثقبان كنبة القماش المشمع، وسمعتُ القماش يتمزّق، ويواصل تمزُّقه، ولا أدري من أين جاءتْ، من أظافر اليَدَيْن والقَدَمَيْن، رعشة ساطعة تتدفّق في دماغي، وفجأة استحال كل شيء إلى أبيض، ثمّ إلى رماديّ، ثمّ إلى دكنة قاتمة، كما

لو أنّ مياهاً حارقة اندلقتْ عليّ، ثمّ المياه الجليدية، وأحسستُ بوَجَع لذيذ في ظهري، كما لو ضربتُ بمسجّة بنّاء.

فتحتُ عينَيّ، كانت فيكتوريا لا تزال تغرز أصابعها في شعري، وتتنهّد. أما أنا، فكنتُ أرى من فتحة في الستارة حريقاً بعيداً، تتعالى ألوانه الحمراء والكهرمانية، كما لو أن الفجر سيبزغ بعد قليل، وكانت حمامات رئيس المحطّة تهدل بأصواتٍ فزِعة، وتحوّم في البرج، وتصطدم بالجدران والسقف، ثمّ تقع على الأرض مصفقة بأجنحتها هلعاً.

جلستْ فيكتوريا فراي، وأنصتتْ. مرَّرتْ يدها في شعرها، وقالتْ:

- هناك أماكن تتعرّض لغارة رهيبة.

فتحتُ النافذة، وسحبتُ رباط ستارة التمويه التي ارتفعتْ بسرعة. وفي البعيد، وراء التلال، كانت حرائق جديدة تواصل اندلاعها هناك، وراء التلال، كانت السماء قرمزية، وتتدلّى مثل ورق الجدران المنزوع، وسط كارثة هائلة.

- لا بد أنها درسد، قالت.

ثمّ نهضتْ، وراحتْ تُسرِّح شعرها، فيُحدثُ المشطُ رنّة غريبة في شعرها. كنتُ أفكّر في جسدها اللّيّن الذي تراءى لي فجأة متدلّياً من أرجوحة طائرة.

- ماذا تفعلين في الحياة المَدَنية؟ سألتُها.

- بهلوان، قالتْ، وهي تحاول تمرير المشط في شعرها الكثّ، وقد أحنتْ رأسها. قبل الحرب، كنّا نقوم بألعاب بهلوانية للجمهور.

جلستُ على الكنبة، وتحسّستُ القماش بخفّة. كانت الكنبة ممزّقة من الوسط، وبدا ساف الحشوة قليلاً. عَبَر قطار بضائع وهو يقذف باقات من الشَّرَر. كانت فيكتوريا واقفة أمام النافذة تُزيل بالمشط الشرارات العالقة في شعرها، وعلى الطريق، ظلّ فارسَيْن يرتسمان على أفق السماء القرمزية.

نهضتُ، ولأوّل مرّة في حياتي كنتُ أشعر بالهدوء.

- أشكركِ، قلتُ.

- وأنا أيضاً، قالتْ، ثمّ تناولتْ معطفها المكنتوش، ودخلتْ إلى مكتب المحطّة، لتنظر إلى ساعة الحائط. تنهّدتْ. دسّتْ يدَها تحت بلوزتها، وسوَّتْ ثديَيْها تحت صدريّتها. ثمّ خرجتْ إلى الرصيف، حيث كان السّيّد هوبيكا يقف منتصباً بثبات على ساقَيْه، وعيناه تحدِّقان في السماء. تبادلا بضع كلمات. ثمّ التفتتْ نحوي، وقالت بالألمانية:

- والآن. يجب أن أذهب إلى كرسكو فعلاً.

ابتسمتْ، واجتازتْ حديقة رئيس المحطّة، ثمّ ابتعدتْ سالكة الممرّ المحاط بالزيزفون من جانبَيْه، وغابت بين المنازل.

عندما وصل رئيس المحطّة على صهوة حصانه الأبيض، ترجّل بسرعة، وناول العنان للخادم الذي همز حصانه، وغادر.

مرّ رئيس المحطّة أمام برج الحمام، وصرخ: "لا تخافي، يا مقلتي، يا عصافير أيّار الصغيرة، لا ينبغي أن تخافي. ماذا فعلوا بكِ؟ يا ملائكتي المجنّحة! لقد عاد رئيس المحطّة! هولا! هولا!"

ثمّ دخل فرحاً إلى المكتب، وجلس مفرشخاً على كرسي، وقال:

- هوبيكا، كلّفني سُمُوّ الأمير بأن أُبلغكَ تهانيه. لقد أحضر البارون بتمان هلويغ صور زدنيكا. الحماس يعمّ السادة النبلاء جميعهم، ويودّون رؤيتكَ. والسّيّد الكونت شخصياً كلّفني بأن أقول لكَ إنه يحسدكَ، يا هوبيكا، وإن مثل هذا الأمر ما كان ليخطر له، ولو خاطرة في البال. إنه يدعوكَ إلى القصر، يا هوبيكا، في الأسبوع المقبل. وفي أثناء اجتماعنا حول المائدة، ألّحوا عليّ بأن أقدّم تقريراً كاملاً أمام الحضور، وأن أشرح لهم كيف حدث هذا.

نهض، وكان التلغراف يُبلغ محطّتنا.

- باهنهوفسبير درسدن، بيرنا، بوتزن ...

خرج رئيس المحطّة إلى الرصيف، وراح يزعق بالاتّجاه الذي ما تزال تتصاعد فيه أصوات القصف، ورفع رأسه مخاطباً السماء الملوّنة:

- هل كان عليكم أن تُعلنوا الحرب على العالم كله؟!.

أضاء السّيّد هوبيكا المصباح المُموَّه على طاولة التلغراف، وفتح سجلّ البرقيات على طرف الطاولة، وأشار إليّ بأنه يريد أن يُطلعني على أمر مهمّ في السجلّ، ولكنني سرعان ما أدركتُ أنه أراد شيئاً مختلفاً تماماً. كان السّيّد هوبيكا يبدو مغتمّاً، وفيما كان يُطلعني على نصوص البرقيات مشيراً إليها بقلمه، كانت رصاصة القلم تهتزّ، فترسم خطّاً متعرّجاً على الورق مثل آلة تخطيط القلب. فتحَ الدُّرجَ بحذر شديد، وتظاهرتُ بمتابعة السطر الأخير، ولكني نظرتُ إلى الدُّرج بطرف عيني: كان نور الصباح المخروطي وحشيله يُضيء مكتب المحطّة ورأيتُ في الدُّرج مسدّساً، وشيئاً ما يشبه المصباح الكهربائي، ولكنه مصباح، من دون فتحة زجاج، إذ ثبت مكانها نوع من الساعات الصغيرة ذات رقّاص، يُحدث تكتكة خافتة.

- ميلوش، همس السّيّد هوبيكا مشيراً بإصرار إلى إحدى برقيات السجلّ، أيسر الأمور أن يقف أحدنا على الرصيف، ويرمي هذا الشيء على عربة الوسط. سوف نعطي إشارة التّوقّف، ثمّ نفتح الخطّ في اللحظة الأخيرة .. فيكون مُجبراً على تخفيف سرعته.

- صحيح، قلتُ، وأنا أشعر بأن كل نافذة في صالة الانتظار وكل فتحة في الستائر قد تُخفي عيوناً متلصّصة. حتّى إني سارعتُ بتناول

قلم، ورحتُ أرسم خطّاً تحت إحدى برقيات السجلّ، وقلتُ بصوت خفيض:

- هل تذكر يوم وقعتْ ذراع الملوِّحة؟ هل تذكر ماذا حدث في ذلك اليوم، حين مرّ القطار السريع؟ إذنْ، اسمع! سأقوم بعمل مماثل. سأتسلّق عمود الملوِّحة، ومن فوق، سوف أنحني إلى الأمام، هكذا، وسأُسقط العبوة الناسفة على عربة الوسط، ثمّ أعود، وأنتظر النتائج ... أين أصبح قطارنا الموضوع تحت الحراسة المشدّدة؟

- لقد عبر لتوّه محطّة بودبرادي، وسيصل إلى هنا في غضون نصف ساعة، قال السّيّد هوبيكا، وهو يُغلق الدُّرج بحركة من بطنه - وبمنتهى الغباء خطّ توقيعه على صفحة السجلّ - ألستَ خائفاً؟

- لا، لم أشعر في حياتي كلها بمثل هذا الهدوء ... آه! قلتُ، أنا رجل، أنا رجل، رجل مثلكَ، يا سيّد هوبيكا، أنا رجل، وهذا أمر رائع، أشعر بالحُرّيّة الآن، وأمسكتُ المقصّ الطويل، وفتحتُ شفرتَيْه، ثمّ أغلقتُهما. وهكذا تخلّصتُ من الماضي، هكذا.

انفجرتُ ضاحكاً، ورفعتُ سمّاعة الهاتف:

- قطار سريع، قلتُ، وأعلنتُ مُبلغاً: جهّزوا أدوات التوجيه للقطار السريع رَقْم ثلاثة وخمسون وستّون وواحد.

ثمّ أدرتُ مفتاح كتلة الموجّهات، وخرجتُ إلى عتمة الليل، وكانت البقعة المتطاولة لا تزال ترتسم عند الأفق، كما لو أن الشمس غربت لتوّها. وحرّكتُ، دون جهد يُذكَر، أذرعة الملوِّحات والإشارات. وكنتُ

أشعر بصفاء، لم أشعر بمثيله في حياتي، كان أمّي تداعبني، كما كانت تفعل في الماضي، لتبدّد كوابيس طفولتي. كان السّيّد هوبيكا يذرع أرض المكتب بخطواته، وكان يُبقي عينَيْه مخفوضَتَيْن، إذ لم يعد يخطر له أن يتأمّل السماء. وكنتُ أشعر بوطأتها، مثله، تلك المسؤولية، ماذا سيحدث؟ حتّى لو جرى كل شيء على خير ما يرام، ما الذي سيحدث فيما بعد؟ ولكني لم أفكّر في هذا كله، ليس لأني لم أفكّر في هذا كله، فقد فكّرتُ في كل شيء، وفي التبعات كلها، وما كنتُ لأعبأ بها، فالأمر الوحيد الذي يشغلني هو أن أصوّب بدقة، من علوّ الملوِّحة، على عربة الوسط، لكي يُنسف القطار كله، ولا أرغب في شيء آخر، ما كنتُ أرى في السماء سوى تلك السحابة التي ترتفع أكثر فكثر حاملةً معها ركام العربات وخطوط السّكّة وعوارضها، وكنتُ أقول لنفسي بأنه كان ينبغي أن أفكّر في هذا الأمر من قبلُ، لا لشيء، فقط لأجل جدّي الذي ذهب بمفرده لملاقاتهم، وحده ضدّ فرقة كاملة من الجيش باسط اليَدَيْن، وفي دماغه المنوّم فكرة وحيدة أن يدور الألمان نصف دورة، ويعودوا من حيث أتوا. وكنتُ أشعر بأنّ ما يتلبّسني اللحظة روحُ جدّي، برغم رأسه الذي ظلّ عالقاً بين زردات زنجير الدبّابة، وأنها هي التي تصدّ قوّات الرايخ، فرقة تلو الأخرى، ودبّابة تلو الأخرى، وجندياً تلو الآخر، حتّى قلب ألمانيا التي انطلقوا منها، والتي يحاصرهم الروس فيها الآن ... ولكنني نسيتُ جدّي، لأني لو فكّرتُ فيه من قبلُ، لحاولتُ أن أقوم بأشياء أخرى. كان قطاري المحمّل بالذخيرة سيصل في غضون عشرين دقيقة، وكانت فرصتي لإنجاز عمل ضخم، ذلك أني لم أعد زنبقة ذابلة. لم يخطر لي في يوم من الأيّام أنني سأجد في داخلي مثل هذه القوّة، كما لم يخطر لي من قبلُ أن السّيّد هوبيكا

سيصبح مُغتمّاً إلى هذا الحدّ، إذ بات عاجزاً عن السير، يقف أمام كتلة التوجيه، منفرج الساقَيْن، يترقّب جرس الهاتف الذي سيُبلغ عن وصول القطار الموضوع تحت مراقبتنا المشدّدة.

دخلتُ إلى المكتب، فتحتُ الدُّرج، ووضعتُ العبوة الناسفة في جيب سترتي، وكان السّيّد هوبيكا يغطّيني بجثّته. وضعتُ المسدّس في الجيب الآخر، ثمّ تابعتُ بإصبعي سطور السّجلّ، وقّعتُ، ووضعتُ القلم في الدُّرج.

توجّه السّيّد هوبيكا نحو اللوح الأسود، حيث دوّنت بالطبشور، منذ ليلة أمس، كل مواعيد وصول القطارات الموضوعة تحت الحراسة الخاصّة، إنه جدول لنحو عشرين قطاراً عسكرياً، مهمّتها إيقاف التّقدّم الروسيّ على الجبهة، أشار إلى هذا الجدول بإصبعه، وهمس:

- ميلوش، سوف أضبط لكَ التوقيت حتّى الدقيقة الأخيرة ...

- أجل ... ولكن القطار السريع خفّف من سرعته.

خرجتُ إلى الرصيف، كان القطار السريع يدخل إلى المحطّة، ويتوقّف. وقفز رئيس طاقمه إلى الرصيف.

- إنه أمر فظيع، قال، درسد كلُّها تحترق.

ترجّل آخرون بدورهم من المقطورة، ومَن يراهم يحسب أنهم سجناء فرّوا من معسكر للاعتقال بسراويلهم المخطّطة، ولكنهم حين دخلوا إلى المكتب، رأينا أنهم يرتدون منامات مخطّطة، وفوقها سترات

خفيفة، تغطّي أبدانهم وعظامهم الهزيلة، كانوا يُحدّقون بنظرات مستقيمة، وجفون ثابتة، وتهالك رئيس الطاقم على كرسي، ومسح جبينه براحة يده.

- لم تعد درسد سوى كتلة نار. وهؤلاء تسلّقوا مقطورتي، قال رئيس الطاقم، ونهض بتثاقل كحصان ملتهب الحافر.

مكث لبرهة وهو يتّكئ بقبضَتَيْه على طاولة التلغراف، ثمّ شبك ذراعَيْه، وظلّ واقفاً وقدْ أحنى رأسه قليلاً إلى الأمام، حتّى كدنا نحسب أنه أُغمي عليه. كان الألمان يقفون بالطريقة نفسها، ويُحدّقون بالأرض في ثبات، ربمّا كانوا يفكّرون في اللحظات الأخيرة التي سبقتْ تقافزهم من النوافذ إلى الحدائق والشوارع، وقد حاصرتهم الأشجار والجدران والأعمدة التي تتساقط من كل صوب. كانت لهم سواعد طويلة، تصل إلى ركبهم تقريباً، وكانوا ساهمين، لا يرفّ لهم جفن، وكأن هول ما رأوه بتر لهم أجفانهم. بتُّ لا أُشفق لحالهم، أنا مَنْ كان يبكي لرؤية جدّه مذبوحاً، ومن بين مشاهد الأسى كلها، كان هؤلاء الألمان لا يثيرون فيَّ الشفقة. فمنذ وقت غير بعيد حين كنتُ لا أزال نزيل المستشفى بسبب معصمَيّ، ذهبتُ لزيارة عمّة لوالدي، العمّة بياتريس التي تعمل كممرّضة في المستشفى منذ خمسين عاماً، وتتولىّ الإشراف على القسم الذي تُعالج فيه الحروق الخطيرة، وكان معظم المصابين من الجنود الذين يتمّ نقلهم من الجبهة في مغاطس زيت، كانوا كأنهم كائنات ضفدعية، والعمّة بياتريس تحضر لهم حساء الخضار، وحين يكون من بينهم مَنْ يعانون أوجاعاً مبرحة تُعاجلهم العمّة بحقن المورفين، ذهبتُ لزيارتها في مكان عملها، هناك، لأن العمّة بياتريس كانت تشعّ بالهدوء، قوية ورائعة، إذ يكفي

أن تنظر إليكَ، لتحقنكَ بالهدوء، ربّما لأنها تعمل في ذلك القسم منذ سنوات طويلة ... مع ذلك، يوم رأتْني أبكي لحال الجنود الألمان، إذ شهدتُ زيارة خطيباتهم وزوجاتهم، وسمعتُ الجنود يبلغونهنّ وصيتهم الأخيرة، من قعر مغاطس الزيت، ويشيرون على زوجاتهم بالأشخاص الذين ينبغي أن يتزوَّجنَهُنّ، وما الذي ينبغي أن يفعلنَه بالأولاد والممتلكات، عندها نهضتُ، إلا أن العمّة بياتريس أجبرتْني على الجلوس من جديد، كانت تقطع جزرة وحزمة كرفس وبقدونس، تقطعها، وتُدندن، بنغم مختلفٍ كل مرّة، "العريف شولته سيموت غداً، العريف شولته سيموت غداً، يموت غداً، يموت غداً ..."، وكانت تغنّي هذا الكلام بلحن أغنية "زنبق الوادي ينبت على هذا الجسر في براغ" ... وكانت تقطع بالسّكّين الجزر والكرفس والبقدونس ... وتعلم جيّداً أنها في الغد ستحقن العريف شولته بكمّيّة أكبر من المورفين وبذلك تختصر بضعة أيّام من أوجاعه المبرحة، لأن العريف شولته حظي بلحظات وداعه الأخيرة ... وفي اليوم التالي، كانت العمّة بياتريس تُدندن، بالصوت الرقيق إيّاه، الملازم ديتي سيموت غداً .. سيموت غداً، بلحن أغنية "خاتم الزواج الذهب الذي أهدتْني إيّاه صديقتي" ... وهي تقطع الخضار، وكنتُ أنظر إلى أولئك الفتيان في مغاطسهم، إذ يبدون، جميعهم، وكأنهم يستحمّون فعلاً، وما كنتُ أتمنّى لهم أن يموتوا، بل أن يعودوا إلى زوجاتهم وخطيباتهم اللواتي تكلّمنَ معهم منذ هنيهة لآخر مرّة، ذلك أن الذين يُنقَلون إلى الطابق السفلي، طابق العمّة بياتريس، هم الذين لا أمل في شفائهم. ولكنْ، ما استطعتُ أن أرثي لحال مَنْ وصلوا من درسد، فهم لا يثيرون الشفقة إلا لأنفسهم. وهؤلاء الألمان يعرفون ذلك. نهض رئيس طاقم القطار، وقال لهم:

- ما كان عليكم سوى أن تمكثوا على أقفيتكم في بيوتكم.

وخرج إلى الرصيف، وأشار بيده، فتحرّكت القاطرة، وقفز الرئيس إلى عربة الطاقم.

- إنه الإله العطوف الذي أرسل إلينا هؤلاء الألمان، همس السّيّد هوبيكا، فمن شأنهم أن يُدلوا بشهادتهم، فيما لو ...

وتنهّد، أما أنا، فكنتُ أسمع على طول الخطّ الحديدي، ومن مركز مُراقبة إلى آخر، صوت الإشارة، هذا الصوت الذي يشبه ضرب مطرقة على جرس مُجوّف، ولم ألبث أن أدركتُ بأنه قطاري، فدخلتُ إلى المكتب. كان السّيّد هوبيكا يحمل سمّاعة الهاتف بيده، ولمجرّد أن لمحتُ مدى امتقاع وجهه، أيقنتُ أنه القطار الموضوع تحت حراستنا المشدّدة.

أدرتُ المفتاح. كان الألمان يقفون في حلقة حول المدفأة، ودائماً بلا حراك مثل التماثيل الحجرية التي تُحيط بالمسلّة الأثرية في ساحة بلدتنا. وجعل أحدهم يبكي، بطريقة غريبة، كان يهدل تقريباً مثل حمامات رئيس المحطّة التي أيقظتْها الغارة. ثمّ بكى هذا الألماني مثل كائن بشريّ، فراح جسده يهتزّ بعنف، وراح الألمان الآخرون ينشقون، وانفجروا بالنحيب، كلّ على هواه، ولكنَّه كان نحيب رجال، نحيب رجالٍ إزاء ما حدث، أحدهم، ذلك الذي يُبرِّد رأسه بإسناده إلى الحائط، بدأ ينزف من أنفه، وتهالك فجأة، وقد رسم أنفه المدمى خطّاً أحمر على طول الجدار.

كان السّيّد هوبيكا ينظر إليّ، وقد أنزل كبيّته على جبينه، بحيث إنه كان مجبراً على رَفْع ذقنه، ليراني.

هُرعت إلى السقفيّة، ورفعت الملوِّحة وإشارة الدخول، وأبقيتُ إشارة الخروج مغلقة.

لحق بي السّيّد هوبيكا، فأخرجتُ العبوة من جيب سترتي، وأضاء مصباحه الكهربائي وسلّطه عليها، وأدار الأزرار، كما لو أنه يضبط آلة تصوير فوتوغرافي.

كانت الحمامات لا تزال عاجزة عن الإخلاد للنوم، وكان هديلها متواصلاً، إذ كانت تقع وهي نائمة، ويُسمع حفيف أرياشها حين تصطدم بالجدران.

ثمّ مَدّ لي السّيّد هوبيكا يداً باردة ودبقة مثل سمكة. سرتُ بمحاذاة الخطّ الحديدي، وكانت سحابة طويلة تحجب القمر، وهطل ثلج جليدي، فاستدرتُ، ولمحتُ في البعيد مصباح القاطرة المموَّه، انقشع القمر من خلف سحابة الثلج، وكانت حقول الثلج تتلألأ في الليل الجليديّ، وتنامتْ إلى سمعي من جديد تكّات هذه البلّورات المجمّدة كلها، كما لو أنّ في داخل كل بلّورة عقرب ثوان ملوَّناً. ثمّ تسلّقتُ عمود الملوِّحة كسُلّم. دفعت الرياح سحابة أخرى، فهطل الثلج من جديد، ثلج دقيق مثل ذباب صغير. جلستُ مفرشخاً على المصباح، وكانت القاطرة تدخل المحطّة، وتُطلق صفيراً هائلاً، لأن الخطّ غير سالك. وأحسستُ بذراع الملوِّحة ترتفع، وترفع معها يدي، واستحال ضوء المصباح من الأحمر إلى الأخضر. كانت ذراع الملوِّحة المرفوعة تضمن لي حماية كافية، لأنها أضخم منّي. وصفّرت القاطرة، رأيتُ السّيّد هوبيكا يشير للسائق بفانوسه الأخضر بأن يعبر، أما أنا، فكنتُ جالساً فوق الملوِّحة، وكان الثلج يتساقط، فأشعر بوخز

النفناف، وكنتُ أرى أن الثلج يتساقط بغزارة. أجلس بلا حراك، وأُمسك ذلك الشيء بيدي، وأسمع تكّة الآلة تخترق جسدي، ثمّ عبرت القاطرة من أمام الملوِّحة، وكانت مغطّاة بشادر مموَّه، لكي لا تكتشفها الطائرات القاذفة عن بُعد، ثمّ توالت العربات، واحدة تلو الأخرى، عربات مكشوفة، وتكاد تكون مسطّحة، محمّلة بصناديق البارود، وكانت الصناديق معزولة فيما بينها، بطبقات من القشّ، ثلاث، أربع، خمس عربات، كنتُ أعدّها، وكان القمر محجوباً وراء غيمة داكنة، يندف منها الثلج، غيمة سميكة جداً، ولكن القمر، برغم ذلك، كان لا يزال مَرئياً مثل أسطوانة غارقة في شلال يتدفّق ويتدحرج في مصبّه، سبع ثماني، تسع عربات، وكان الثلج يتساقط بغزارة حتّى إني، لبرهة، لم أعد أرى لا عربة المؤخّرة، ولا القاطرة، إحدى عشرة، اثنتا عشرة، ثلاث عشرة عربة، ورميتُ الآلة بهدوء، كما تُرمى وردة في ساقية، وكنتُ حسبتُ رميتي بدقّة، إذ رميتُ الآلة، بدت مقدّمة العربة مباشرة تحتي، وسقطت العبوة تماماً في وسط العربة التي كانت تتقدّم لتتلقّى ذلك الشيء الذي أصبح فيها، ويقود القطار الموضوع تحت الحراسة الخاصّة نحو نهايته، حتّى آخر لحظة، أبقيتُ أنظاري مثبتة على هذه العربة، وعلى هذه البقعة البارزة في وسطها، العربة الرابعة عشرة، حتّى حجبها الثلج عن أنظاري، وعزمت على الانتظار فوق، طوال الدقائق الأربع، لأتمتّع بالمشهد من عُلُوّ هذا المرصد، الانتظار مثل خفير الصّيد حتّى لحظة التدمير، ثمّ رأيتُ عربة المؤخّرة تقترب، وعليها برج مراقبة، ومن البرج، ينبعث مخروط طويل من الضوء، ثُبّت عليّ، تناولتُ مسدّسي، ورأيت أستون بندقية تحتي مباشرة. أطلقتُ النار، وأطلق أحد ما النار في الوقت نفسه، سقط مصباح الجيب مضاءً على رصّة السّكّة، وسقط أحدّ ما من

برج المراقبة، وتدحرج في الحفرة. أحسستُ بألم في كتفي، وانزلق المسدّس من بين أصابعي، هويتُ رأسي أوّلاً، ولكن معطفي علق بعارضة، حدثت طقطقة في الملوِّحة، وتبدّل الضوء من الأخضر إلى الأحمر، وثبتت ذراع الملوِّحة في وضعيّتها الأفقية، وكنتُ متدلّياً رأسي إلى الأسفل، وأسمع سترتي تتمزّق، وسقطتْ مفاتيحي وقطع نقودي المعدنية من جيوبي، ولامستْ أذنيَّ الطّانَتَيْن، كنتُ أرى القطار يبتعد، أراه يجتاز المنعطف مقلوباً، من القاطرة حتّى عربة المؤخّرة، كأنه يسير على سقف الليل، كانت فوانيس عربة المؤخّرة الحمراء تبتعد، وكنتُ أرى الجندي في الحفرة قرب الملوِّحة مكوَّماً مثل طابة، والثلج يتساقط على ثيابه، وقد فقد كبيّته، فبدا أصلع الرأس. كانت سترتي تتملّع شيئاً فشيئاً، وأحسُّ الدم يسيل على عنقي تحت قميصي، ثمّ يغطّي وجهي، وأخيراً أنهى معطفي تمزُّقه البطيء، وهويتُ، رأسي إلى الأسفل، على رصّة السّكّة السوداء المشبعة بالزيت والشحم. سقطتُ على يدي، وانغرزت حوافّ حجر مسنّنة في راحتي. ثمّ تدحرجتُ في الحفرة، وأصبحتُ لصق الجندي الألماني الذي كان ممدّداً على جنبه، وبدا وكأنه يمشي مراوحاً في مكانه، كان يغرز جزمته الغليظة في الثلج حتّى تصل إلى التراب والعشب المجمّد، ويشدّ على بطنه، ويئنّ. وضعتُ يدي على فمي، وسعلتُ، فبصقتُ دماً. كان الجندي الألماني قد ثقب رئتي، أما أنا، فثقبتُ له بطنه. وعندئذ فهمتُ لماذا لم يكفّ السّيّد هوبيكا عن التّنهّد والبصق طوال الأمسيّة. كأنه توقّع نهايتي، لأنه لم يسبق للسّيّد هوبيكا أن خاف من أيّ شيء، ولكن هذا أكثر ممّا يستطيع، كان كل شيء حدث قبل أن يتمّ فعلاً. كنتُ أنظر إلى السماء، حيث لا يزال الثلج يتساقط، ثمّ انقلبتُ على نفسي، وزحفتُ بصعوبة حتّى

أصبحتُ بقرب الجندي الذي يئنّ ويردّد بلا توقّف الكلمة نفسها: "موتي، موتي، موتي".

كان ينادي، فيما كنتُ أنظر إليه، وكنتُ أبصق دماً، وأعرف أن هذا الجندي لا ينادي أمّه، بل أمّ أولاده، لأنه رجل فَقَدَ شعر رأسه، وبدت صلعته. ولمّا انحنيتُ عليه، لاحظت أنّه يشبه السّيّد هوبيكا، لدرجة أثارت فيّ الخوف. كان يحتضن بطنه بقوّة، وكأنه يريد أن يخرج من جسده الجريح، ويواصل محاولته الزحف وهو في مكانه، فيما جزمته تحفر الثلج على الأرض المغطّاة بالجليد.

مكتبة

أرخيتُ ذراعي، وتمدّدتُ على ظهري، وكان خيط دماء يسيل عند زاوية شفَتَيّ، وكأن النيران تستعر في صدري. وفجأة رأيتُ ما كان السّيّد هوبيكا يراه منذ البداية، رأيتُ أنني هالك، وأنه ليس لي إلا أن أنتظر أمراً وحيداً، أن ينفجر القطار، ففي غياب أيّ شيء آخر، كان ينبغي أن أرضى بهذا في مثل حالتي، إذ ليس هناك ما أنتظره سوى الموت. أحد أمرَيْن، إمّا أن أموت بسبب هذا الجرح، وإما أن يُعثَر عليّ حيث أنا، ويتولّى الألمان إعدامي شنقاً أو رمياً بالرصاص، وخطرتْ لي فكرة، وأدركتُ أنني كنتُ منذوراً لميتة تختلف عن الميتة التي حاولتُ أن أرتجلها في بيستريس بنسوف وما كان يغيظني هو أنني أصبتُ هذا الألماني في بطنه، كان يشدّ على أسفل بطنه، ويواصل تحريك ساقَيْه عبثاً، وكنتُ أعلم أن لا أحد يستطيع أن يُنقذه، لأن الجروح في البطن قاتلة، ولكن الموت الذي كان هذا الألماني يتقدّم نحوه موت بعيد حتّى أن مَنْ يراه ليظنّ أنه لن يصل إليه أبداً، لأنه كان يسوّي لجثّته مكاناً أوسع، ويردّد بانتظام:

- موتي، موتي، موتي ...

كان مداسه العسكريّ يحفر دماغي، فانقلبتُ على نفسي، وزحفتُ مستعيناً بمرفقي حتّى وصلتُ إلى جزمته العسكرية، وأردتُ أن أمسكها بيدي، ولكنه واصل تحريك قَدَمَيْه بقوّة وسرعة حتّى أفلت منّي، وكأنهما روافع آلة تعمل. أخرجتُ من جيب معطفي رباطاً أستخدمه لرَبْط الأرقام على عربات الأطفال والدّرّاجات حين يصرّ المسافرون على نقلها معهم في القطار، وقيدها، مسحتُ الدماء وربطتُ طرف الرباط حول إحدى القَدَمَيْن، وعندما حرّك قَدَمَه الأخرى ربطتُ الطرف الآخر حول القَدَم الأخرى، فكفّت قَدَمَاه لبرهة عن الحركة، وارتعدتا، ثمّ، بقوّة آلة، قطعَتا الرباط، وعاودتا نبش الأرض بسرعة أكبر، والجندي يصرخ بصوت أعلى:

- موتي! موتي! موتي! ممّا جعلني أتذكّر أشياء ما كنتُ أودّ أن تراودني، أمّي التي ستنتظرني في الصباح واقفة خلف الستارة، ولكنني لن آتي ولن أنعطف عند زاوية الشارع حالما أصل إلى الساحة، وهي لن تُحرّك الستارة، لتقول لي إنها بانتظاري، وإنها سعيدة، ذلك أنّ أمّي لا تنام جيّداً حين أعمل في وردية الليل، وممّا لا شكّ فيه أن زوجة هذا الجندي، هي أيضاً لم تكن لتنام جيّداً منذ رحيل زوجها إلى الجبهة، بل تنتظر هي أيضاً هناك خلف ستارة ما أن ترى طيفاً يتقدّم في الشارع، أو ينعطف باتّجاهها، ويكون هذا الطيف هو هذا الرجل الممدَّد بجواري، والذي يتقدّم مراوحاً في مكانه، ويناديها ويسير ويسير، ولكنه لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من موته. زحفتُ حتّى وصلتُ إليه، وصرختُ في أذنه: "اصمت! اصمت!"(*).

*) بالألمانية في النصّ (م. ف).

ولكن هذا الجندي ما كان ليسمع شيئاً، وفيما كنتُ أضع يدي على الثلج لأتّكئ عليها أحسستُ بأستون البندقية البارد، فأمسكتُه، وانقلبتُ جانباً. كنّا، الجندي وأنا، مُمدَّدَيْن وجهاً لوجه. سدّدتُ الفوهة إلى الصدر، إلى موضع القلب، ولكني أخطأت في الجهة، كنتُ أخلط بين الجهة اليمنى والجهة اليسرى، ولكي أكون على ثقة من الأمر، كان عليّ أن أسأل نفسي بأيّ يد أكتب، بهذه اليد أم بتلك، فتأكّدتُ، وسدّدتُ البندقية مباشرة إلى قلب الجندي، لكي لا أعود أسمع صراخه، لكي لا يظلّ صراخه في رأسي، وضغطتُ على الزناد، سمعتُ دوّياً، وأحرقت الشعلة الصغيرة المكتومة قماش البزّة، وانتشرت رائحة القطن والصوف المحروق، ولكن الجندي كان ينادي بصوت أعلى أولاده، زوجته، وكان لا يزال يسير في مكانه، ولكنْ، بسرعة أكبر، كانت الخطوات الأخيرة، إذ لم يعد أمامه سوى سياج الحديقة، وخلف هذا السياج البيت، حيث يقيم أحبّاؤه ... توقّف تساقط الثلج، وبدا القمر رائعاً، ومن كل نديفة في المدى المغطّى بالثلوج، كانت تترامى إلى مسامعي تكّة عقرب الثواني الملوّن، والتمعتْ في عنق الجندي سلسلة فضّيّة، وفيها شيء يُمسك الجندي به بكلتا يَدَيْه، وكان يصرخ أعلى وأعلى:

- موتي! موتي!

سدّدتُ الفوهة إلى حاجبه، وضغطتُ على الزناد، وكنتُ ممدَّداً على الأرض بطريقة غريبة. ثمّ أدركتُ أنه سكت أخيراً، ورأيتُ أنّ ساقَيْه أوصلتاه إلى آخر رحلتهما، ببطء وبلا ضجّة، رأيتهما تتوقّفان، وكنتُ ممدَّداً فوقه، فوق جثّة هذا الجنديّ، وسمعتُ الدعة والصمت يتسرّبان إلى داخله، وسمعتُ كل شيء يتوقّف مثل آلة سقطتْ

على الأرض. كنتُ أبصق دماً، وألطّخ برّة الجنديّ، تناولتُ منديلي، لكي أمسح بقعة الدماء هذه، كانت أنفاسي متقطّعة، وبدأتُ أشعر بالاختناق، ولكني استجمعتُ ما تبقّى من قواي، وانقلبتُ على نفسي، ومَدَدتُ يدي، وأمسكتُ بالسلسلة التي كان الجنديّ يتشبّث بها، وبدا لي أن وجهه بات هادئاً سوى أن ثقباً محروق الفتحة مكان عينه اليمنى كأنها عوينة زرقاء. انتزعتُ هذه السلسلة التي كان الميت يتشبّث بها، وفي ضوء القمر، لاحظتُ أنها ميدالية، على أحد وجهَيْها نفلية خضراء ذات أربع وريقات، وعلى الوجه الآخر كتابة حرز: فأل حسن. ولكنها لم تجلب لنا الفأل الحسن هذه النفلية ذات الوريقات الأربع، لا للجندي، ولا لي أنا، ومع ذلك، كان هذا الجنديّ رجلاً مثلي، أو مثل السّيّد هوبيكا. كان بلا رتبة أو أوسمة، وها كل منّا أطلق رصاصة على الآخر، كلّ منّا قتل الآخر، بينما، أنا على ثقة، أننا لو كنّا التقينا في الحياة المَدَنية، لكنا أحسسنا بالودّ المتبادل، ولكنّا تبادلنا أطراف الأحاديث.

ثمّ دوَّى الانفجار. وأنا الذي، للحظات خلتْ، كنتُ أتلذّذ سَلَفاً لمجرّد فكرة حدوث هذا المشهد، كنتُ ممدَّداً على الأرض بجوار هذا الجنديّ، مددتُ يدي، وفتحتُ أصابع يده التي بدأت تتصلّب، ووضعتُ فيها هذه النفلية الخضراء ذات الوريقات الأربع التي تجلب الفأل الحسن، فيما كانت سحابة ترتفع من الأرض نحو السماء، سحابة في شكل فطر، ترتفع وترتفع وتتضخّم بطبقات متزايدة من الدخان، كنتُ أسمع ضغط الهواء يمزّق المشهد، يئزّ ويصفّر بين أغصان الشجر العارية ونباتات الشوك، ويهزّ خطوط تحويل الملوِّحات، ثمّ يثقل على الذراع، ويرجّها، ولكن نوبة سعال فاجأتني، وبصقتُ دماً. وحتّى آخر لحظة، حين بدأتُ أتلاشى عن نفسي، أبقيتُ يدي في يد هذا الميت، أردّدُ على مسامعه التي لم تعد قادرة على السماع

الكلمات التي قالها رئيس طاقم القطار السريع الذي أوصل الألمان المنكوبين من درسد:

- ما كان عليكم سوى أن تمكثوا جالسين على أقفيتكم في بيوتكم.

بوهوميل هرابال(*)

يُعد بوهوميل هرابال أبرز أديب تشيكي في القرن العشرين. ولد في مدينة برنو نتيجة علاقة عابرة بين أمه ماري وأحد شباب المدينة، ثم تزوجت ماري فرانتيشك هرابال محاسب مصنع «البيرة» في مدينة بولنا، فوجد فيه نعم الأب. انتقلت العائلة الجديدة إلى مدينة نيمبورك على نهر إلْبِه، حيث تلقى بوهوميل تعليمه وأمضى سنوات يفاعته. ظهرت تجارب هذه المرحلة في ثلاثيته القصصية "بلدة على شاطئ النهر" وفي "البلدة التي توقف فيها الزمن". لم يبدِ هرابال اهتمام بالمدرسة وواجباتها، بقدر ما اهتم بالحياة الملونة في معمل البيرة وبجوزيف عم پيپن شقيق زوج أمه الذي أتى بقصد الزيارة، فبقي أربعين سنة حتى وفاته، والذي أطلق هرابال على أسلوبه في الحديث صفة «النهر المتدفق» واتّبعه في معظم كتاباته، ولاسيما في قصته الطويلة «آلام العجوز ڤرتر» التي غير عنوانها ونشرها في عام ١٩٦٤ بعنوان "دروس رقص للكبار والمتقدمين . بعد حصوله على الشهادة الثانوية عام ١٩٣٥ انتسب هرابال إلى كلية الحقوق، وصار يحضر في الوقت نفسه محاضرات تاريخ الأدب والفن والفلسفة، ولم يتمكن من إنهاء دراسته حتى عام ١٩٤٦ بسبب إقفال الجامعة في فترة الاحتلال النازي لبلده، فعمل في أثناء الحرب في الخطوط الحديدية وفي شركة للتأمين وبائعاً متجولاً، ثم في معمل لصهر الحديد منذ عام ١٩٤٩.

---

*) المصدر: الموسوعة العربية.

وتعرّض في عام ١٩٥٣ لحادث مؤلم اضطره إلى الانتقال إلى مستودع لجمع الورق القديم. وقد تجلت تجارب هذه المرحلة في بعض أبرز أعماله القصصية مثل "عزلة صاخبة جداً" . وفي الجزء الأول من سيرته الذاتية الثلاثية "أعراس في البيت" وفي "خدمتُ ملك إنكلترا" بدأ هرابال الكتابة الأدبية منذ ثلاثينيات القرن العشرين، لكنه لم ينشر أياً من كتاباته حتى الخمسينيات، ولم يتفرغ كلياً للأدب حتى عام ١٩٦٣. لكن السلطات السوڤييتية في تشيكوسلوڤاكيا منعته من النشر منذ عام ١٩٧٠ فصار ينشر بعض أعماله في مجلات المهجر ودور نشره. نشر في عام ١٩٧٥ مقالة في النقد الذاتي في مجلة «تڤوربا» Tvorba في براغ، أدت إلى التساهل معه رقابياً، ولكن بحذر بالغ. وبعد تفكك المنظومة الاشتراكية عام ١٩٨٩ وقيام جمهورية تشيكيا صدرت مؤلفاته الكاملة بين ١٩٩١-١٩٩٧ في تسعة عشر مجلداً عن دار نشر "خيال براغ" وبلغ مجموع ما طُبع من مؤلفاته باللغة التشيكية حتى اليوم ثلاثة ملايين نسخة، كما تُرجمت بعض مؤلفاته البارزة إلى ثلاثين لغة، وكان أحد أسباب شهرته عالمياً هو تحويل روايته "قطاراتٌ مراقبة جيداً" إلى فيلم سينمائي نال جائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي في عام ١٩٦٧. كما أعيد اقتباس الرواية للسينما مرة ثانية في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٧١.

اعتمد هرابال في موضوعات رواياته وقصصه على أحداث من الحياة اليومية يتورط فيها أناس عاديون من دون أن تكون لهم سلطة على سير الأمور أو قدرة على استيعاب ما يجري. ويتسم أسلوبه بقدرة تعبيرية بصرية عالية، وبميل إلى الجمل الطويلة المتدفقة، إلى جانب حس فكاهي ساخر وساحر، يعتمد كثيراً على شخصية (الأحمق الحكيم) الذي تبدر عنه في اللحظات الحرجة أفكار في غاية العمق.

توفي هرابال في أحد مستشفيات براغ بعد أن سقط من شرفة الطابق الخامس عندما كان يطعم الحمام البري على ما يبدو. وقد شك بعضهم في كون سقوطه انتحاراً وليس حادثاً، ولاسيما أن الأسلوب قد ورد في مشهدين من أعماله.

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

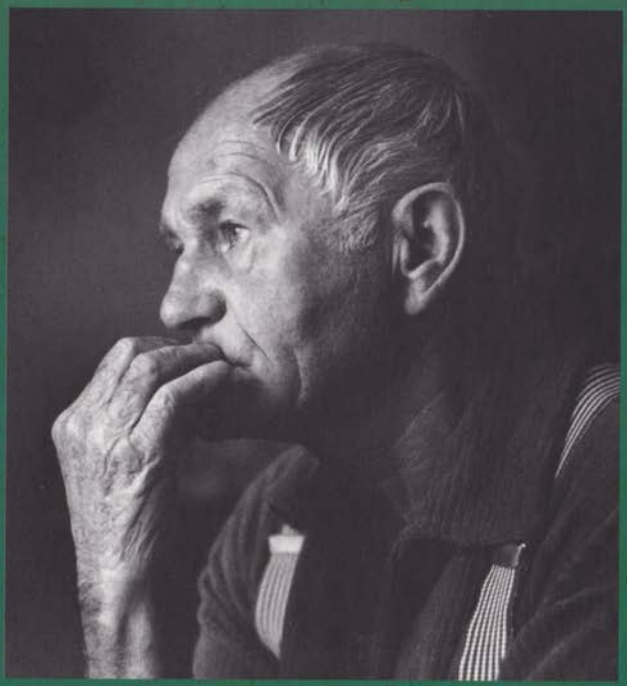

بوهوميل هرابال: يُعد بوهوميل هرابال أبرز أديب تشيكي في القرن العشرين. ولد في مدينة برنو نتيجة علاقة عابرة بين أمه ماري وأحد شباب المدينة، ثم تزوجت ماري فرانتيشك هرابال محاسب مصنع «البيرة» في مدينة بولنا، فوجد فيه نعم الأب. انتقلت العائلة الجديدة إلى مدينة نيمبورك على نهر إلبه، حيث تلقى بوهوميل تعليمه وأمضى سنوات يفاعته. ظهرت تجارب هذه المرحلة في ثلاثيته القصصية ... (في داخل الكتاب عرض مطول لحياة الكاتب (ص ١٠٩)).

منشورات المتوسط

هذه الرواية واحدة من أكثر التجسيدات أصالة لمدينة براغ السحرية، اتحاد رائع بين الفكاهة الواقعية وبين الخيال الباروكي ... الذي يميز هرابال هو قدرته على الفرح.»

«كتاب واحد من كتب **بوهوميل هرابال** يختصر كل ما عجزنا نحن جميعاً عن تقديمه لأجل إنسان متحرر، رغم كل ما نفعله بإيحاءاتنا واحتجاجاتنا الصاخبة.» ... **ميلان كونديرا**

تجسد هذه الرواية الصورة المتقنة والشاعرية لـ ميلوش هرما، الصبي الخجول الذي بدأ يتمرن حديثا للعمل لمصلحة السكك الحديدية في إحدى محطات القطارات، يعزل نفسه بخياله ضد الواقع المليء بالقسوة والحزن، ويجد متعته بمراقبة القطارات التي تأتي وتذهب ومعها تأتي وتذهب الأيام. إلى أن يبدأ شك غريب ينمو في داخل هرما، بأنه هو المراقب، ومعه تنمو مخاوفه من العجز الجنسي. تسيطر هذه المخاوف على هرما لتدفعه إلى الحاجة لتأكيد رجولته، لتتعرف على حالة من قوة الإرادة والتصميم لم نشهد لها مثيلا من قبل. وها هو يواجه ببسالة قطارا كاملاً من النازيين.

مكتبة 403

ISBN 978-614-432-800-2

9 786144 328002

منشورات المتوسط

الفارابي